الفصل الثالث

وضع خيارات المخاطبة في إطارها السياقي
CONTEXTUALISING ADDRESS CHOICE

كما رأينا في الفصل الثاني حدث تحول في البحث اللغوي-الاجتماعي، انتقل بموجبه من النظر إلى الهوية الاجتماعية كسلسلة من الفئات الإستاتيكية الخاصة بالفرد مثل فئة العمر أو الجنس، إلى النظر إليها في إطارها الديناميكي والسياقي. وتوضح البيانات المستقاة من اللغة الألمانية أن المتحدثين الذين يفضلون du أو Sie، على سبيل المثال، قد يكون لهم سمات ذاتية واجتماعية متشابهة، وهو الأمر الذي يدعونا إلى البحث فيما وراء التغيرات الاجتماعية الإستاتيكية عند تبرير خيارات المخاطبة. في هذا الفصل، سوف نتعامل مع هذا التحول في ضوء ما بين أيدينا من بيانات. يبدأ الفصل بمقارنة أساسية للموارد اللغوية المتاحة في اللغات الأربع من أجل إبراز أوجه التشابه والاختلاف بينها، ثم يتناول بعد ذلك البيانات المستقاة من تلك اللغات من منظور فئتين إستاتيكيتين تقليديتين، وهما العمر والمكانة الاجتماعية، نظراً لكونهما عنصرين أساسيين يستخدمان في تصنيف الآخرين وفي تحديد موقعنا في العالم مقارنة بالآخرين، كما نركز في البيانات على دراسة مدى بروز هذين العاملين للمتخاطبين في كل لغة على حدة. وحينما نمضي إلى ما وراء تلك الفئات المحددة سلفاً، فإننا نتخذ مفهوم "القواسم المشتركة الملحوظة"

perceived commonalities كفئة مفسرة explanatory category نبرز من خلالها "التشابه" و"الاختلاف" ودورهما الهام في تحديد سياق خيارات المخاطبة. واتساقاً مع أهداف هذا الفصل، فإننا لا نفرق هنا بين اللهجات الوطنية لكل من الألمانية والسويدية، وهو موضوع سنتناوله في الفصل الخامس، ونذكّر القارئ هنا بأن البيانات المستقاة من اللغة الإنجليزية، والتي تعد نقطة مرجعية، تنحصر في بيانات مجموعة الدراسة وأن عدم وجود فارق بين صيغتي T و V يضع ضغوطاً لملء الفراغ الذي يصنعه غياب الضمير وذلك باستخدام متزايد لصيغ الاسم الأول/الاسم الأخير و/أو لقب التبجيل في المخاطبة.

(٣,١) أنظمة المخاطبة الأساسية
The Basic Address Systems

في كل لغة من اللغات الأربع محل الدراسة، يمكن التعبير عن العلاقات الشخصية من خلال صيغ المخاطبة modes of address. وكما أوضحنا في الفصل الأول، هناك طريقتان أساسيتان للقيام بهذا الأمر في تلك اللغات هما: (أ) بواسطة الضمائر، و(ب) بواسطة الاسم، من خلال استخدام الاسم الأول، وألفاظ التبجيل و/أو الألقاب والاسم الأخير، أو أي من أنواع المخاطبة الأخرى، غير أن كل لغة تعتمد على مَعين مختلف من الألفاظ.

يبين الشكل رقم (٣,١) صورة أولية لمقارنة ألفاظ المخاطبة التبادلية (التي تستخدم من الطرفين) وألفاظ المخاطبة المفردة (التي تستخدم من طرف واحد) في اللغات الأربع، مع وضع تلك الصيغ في شكل سلسلة تمثل درجات "التفاوت الاجتماعي" (ارجع إلى الفقرة ٢,٣,٣)

– تفاوت اجتماعي (أقل)	<—>	+ تفاوت اجتماعي (أكبر)

الإنجليزية	U	
	الاسم الأول استخدام الألفاظ dear, love, mate	اللقب/اسم التبجيل + الاسم الأخير استخدام صيغ Sir, Madam

الفرنسية	صيغة T	صيغة V	
	الاسم الأول	الاسم الأول	لفظ التبجيل (+ الاسم الأخير) لفظ التبجيل + اللقب (+ الاسم الأخير)

الألمانية	صيغة T	صيغة V	
	الاسم الأول لفظ التبجيل + الاسم الأخير	الاسم الأول	لفظ التبجيل + الاسم الأخير لفظ التبجيل + اللقب (+ الاسم الأخير)

السويدية	صيغة T		صيغة V
	الاسم الأول	الاسم الأول + الاسم الأخير	اللقب + الاسم الأخير

الشكل رقم (٣,١). سلسلة بسيطة من الصياغات التبادلية في الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والسويدية (مخاطَب واحد).

سوف نعود بمزيد من التفصيل إلى هذا المخطط في الفصل السادس. ويقصد من وراء وضع احتمالات المخاطبة بهذه الطريقة هنا إلى جذب الانتباه إلى ما نسميه الصيغة الافتراضية للمخاطبة default mode of address في كل لغة من اللغات. ففي الإنجليزية نستخدم الضمير U للإشارة إلى ضمير المخاطبة you، إذ إن هذا الضمير نفسه هو

المستخدم لأداء دور صيغتي T "العفوية والمساواة" و V "الرسمية والاحترام" دون أن يكون معادلاً لأي منهما. وفي الفرنسية والألمانية نعتبر أن V هو الضمير الافتراضي، وفي السويدية نعتبر أن الضمير T هو الضمير الافتراضي. ويوضح الشكل رقم (٣,١) أيضاً كيف أن ضمائر المخاطبة يمكن أن تجتمع في صيغ اسمية مختلفة مثل صيغة الاسم الأول أو الاسم الأخير وتعبر عن الدرجات المختلفة للتفاوت الاجتماعي. وسوف نناقش في الفقرات التالية، صيغ الضمير وصيغ الاسم، كل على حدة.

(٣,١,١) صيغ الضمائر Pronominal Forms

تمتلك اللغة الإنجليزية القياسية الحديثة صيغة واحدة للمخاطبة (هي صيغة الضمير U، كما في الشكل رقم ٣,١). إن أول ما نلاحظه هنا هو أن استخدام الضمير U في الإنجليزية يمكن اعتباره، في ذاته، صيغة المخاطبة الافتراضية المحايدة، كما يتضح لنا من الحوار التالي من مدينة لندن (ارجع إلى مفاتيح الرموز، صفحة ن):

(١) أعتقد أننا نبذل قصارى جهدنا كي لا نستخدم الأسماء مع الأشخاص. فإذا سقط شيء من أحد المارة في الطريق فإنني لا أستخدم Sir أو Madam معه، ولكن أقول فقط Excuse me "معذرة"، لقد سقط منك شيء.

(٢) وهذا يجنبك الإشارة إلى الشخص بصورة مباشرة.

(١) أعتقد أننا جميعاً في هذا البلد نحاول تحاشي الإشارة المباشرة للشخص.

(٣) ولكن هل هذا التحاشي يتم عن وعي؟

(١) إننا لا نعرف. أعتقد أنه من الصعب معرفة ذلك. ولا تستطيع مخاطبة الأفراد بأسمائهم لأنك تجهل الاسم الأول لمن هو غريب عنك. لا تريد أن تقيّم شخصاً أو تُصنفه من الناحية السياسية باللجوء إلى استخدام صيغ مثل Mr "مستر"، و Mrs "مسز"، و Ms

"مز" أو أي شيء من هذا القبيل. فكلمة Mr تعد كلمة رسمية، على الأقل في رأيي، أما استخدام Sir "سير" أو Madam "مدام" فيبدو أنه أمر قد عفى عليه الزمن.

(مجموعة الدراسة، لندن، (١) محام، ٣٤ عاماً، (٢) طالبة، ٣٥ عاماً، (٣) سيدة بدون بيانات).

يعلق المنسق في مجموعة لندن على هذا الحوار بأن الضمير you يمكن أن يستخدم كضمير رسمي أو غير رسمي، وهو ما أوجد جدلاً حول كيفية التعبير عن التفاوت الاجتماعي أو الرسمية في لغة تفتقر إلى التمييز الضميري. وركزت بعض المناقشات على العوامل المتعلقة بنغمة الصوت وبنية الجملة وأسلوب الحديث في المخاطبة والتي يمكن أن يعبر عن مستوى التفاوت الاجتماعي وهو ما تعبر عنه بصورة جلية اللغات ذات الضمائر المتمايزة التي يمكن الاختيار من بينها للمخاطبة . مثلاً :

(١) إنك لا تقول Are you alright? "هل أنت بخير؟" لشخص تريد إظهار بعض الاحترام له. لنقل إنك تتحدث مع جدتك، فإنك حينئذ لا تقول لها Are you alright? "هل أنت بخير؟" ، ولكن ربما تقول How are you? "كيف حالك؟" . إذن هناك تمايز في الأسلوب وتمايز في النغمة عند استخدام الضمير you. وهناك أيضاً طريقة مختلفة في استعمال you، وطريقة مختلفة عند استخدام هذا الضمير في جملة. [...].

(٢) لكن الشيء الآخر الذي أريد أن أضيفه هو أنني أعتقد أننا جميعاً نمتلك القدرة على تغيير دورنا باستخدام الصوت، والنغمة والأسلوب. وأعتقد أننا نؤدي ذلك أحياناً بمهارة شديدة. ولكن بغض النظر عن الشخص الذي نخاطبه، يبدو أننا نتوافق بسرعة شديدة مع المستوى الذي يجب أن نكون عليه مع هذا الشخص كي نشعره بالراحة.

(لندن، مجموعة الدراسة، (١) عامل متطوع، ٢٦ عاماً، (٢) معلم متقاعد كان يعمل بمدرسة ثانوية، ٧٧ عاماً).

في حين تحتفظ اللغة السويدية بازدواجية الضمير، يعد استخدام صيغة V في الوقت الحاضر محدوداً ويعد الضمير T هو الضمير الافتراضي، كما يتضح لنا من الاقتباس التالي:

[هل هناك من يستخدم ni "أنت، الخاصة بالرسمية والاحترام" في هذه الأيام؟ الجميع يتخاطبون بـdu "أنت، الخاصة بالعفوية والمساواة"].
(جوتنبرج، مجموعة الدراسة ١، مصممة تقنية معلومات، ٤٠ عاماً)

هكذا يمكن القول إن اللغة الإنجليزية واللغة السويدية تتشابهان في أن التمايز الضميري إما أنه غير موجود أو ضعيف جداً.

على الرغم من الاستخدام الشائع لصيغة الضمير T في اللغة السويدية، إلا أن المتحدثين السويديين لا يزالون يستخدمون أفعالاً مثل dua و nia بكثرة، مما يعني أنهم "يستخدمون إما صيغة T أو V عند مخاطبة شخص ما"، وهم بهذا يظهرون أن خيار المخاطبة عن طريق الضمير لا يزال قائماً عندهم. ويمكن تفسير هذا الأمر في ضوء أن استخدام T في كافة السياقات كان أمراً محدثاً وأن المتحدثين السويديين لا يزالون يتخاطبون بصيغة الضمير V. وبالإضافة إلى ذلك، تربط الدلالات المختلفة للصيغتين أجيالاً مختلفة من المتحدثين السويديين (انظر الفقرة ٣,٢,٣). وتوجد أفعال في الفرنسية والألمانية تشبه تلك التي رأيناها في السويدية (الفعلان tutoyer/vouvoyer في الفرنسية والفعلان duzen/Siezen في الألمانية)[1]، وفي هذا

(١) لا يظهر ضمير المخاطب أو المتكلم أو الغائب من خلال نهايات الأفعال في السويدية (مثل ?Kommer du? Kommer ni "هل أنت قادم؟"؛ أو !Kom "تعال!"، على العكس من الفرنسية والألمانية حيث يتغير شكل نهاية الفعل حسب الضمير المختار (مثل ?Kommst du "هل أنت قادم؟" ?Kommen Sie "هل أنت قادم، للاحترام؟"، !Komm "تعال!"، !Kommen Sie "تعال !للاحترام"، ?Tu viens "هل أنت قادم؟"، ?Vous venez "هل أنت قادم، للاحترام؟"، !Viens "تعال!"، !Venez "تعال !للاحترام").

دلالة على أن متحدثي اللغة يدركون الفروق في استخدام الضمائر وقيمتها الاجتماعية ؛ فاستخدام الضمير يعد موضوعاً ذا أهمية لهم.

في اللغة الفرنسية، كان الضمير V دائماً هو الضمير الافتراضي. بمعنى آخر، في المقابلات الأولى مع الغرباء، يكون الضمير V هو أكثر الضمائر التي يحتمل استخدامها، غير أن هناك أدلة أيضاً على التحول إلى صيغة T كصيغة افتراضية بين الأجيال الشابة وهناك أدلة على وجود أنماط غير مستقرة لاستخدام الضمير، وقد أدى هذا كله إلى إفراز ما يمكن تسميته بـ"المنطقة الرمادية" grey area. ويتشابه هذا الأمر مع ما حدث في الألمانية حيث كان الضمير الافتراضي في المقابلات الأولى هو تلقائياً الضمير V، غير أن دراستنا توضح أيضاً التأرجح في استخدام الضمير الافتراضي بين الضمير T والضمير V، مما يدل على وجود منطقة رمادية واضحة، حيث يعتمد اختيار الضمير الافتراضي على المتغيرات الاجتماعية والسياقية (انظر الفقرة ٣,٤، و ٣,٥، و ٣,٦). وللغة الألمانية أيضاً صيغة ضميري محدد في المخاطبة وهو الضمير ihr "أنتم"، وهو يمثل صيغة الجمع للضمير du، ويمكن استخدامه مع شخصين أو أكثر يخاطب كل منهم باستخدام du في حالة المفرد. غير أن لهذا الضمير وظائف أخرى في نظام المخاطبة بما في ذلك وظيفة التعبير عن الجمع بصفة عامة (انظر الفقرة ٣,٢).

يتضح اختيار الضمير الافتراضي في اللغة الفرنسية، والألمانية والسويدية من إجابات المفحوصين عن سؤال المقابلة: "هل سبق وأن خوطبت بطريقة غير متوقعة؟" ويبين الجدول رقم (٣,١) الفروق بين اللغات الثلاث فيما يتعلق بهذا السؤال. ففي الفرنسية، يقرر أغلب المشاركين الذين أجابوا بـ"نعم" استخدام الضمير T بشكل غير متوقع (٧٧٪)، وهي نفس الحالة مع اللغة الألمانية ولكن بنسبة أقل (٥٨٪)، بينما ذكر المشاركون من السويديين والذين أجابوا بالإيجاب استخدام الضمير T بنسبة عالية جداً (٩٦٪). ما نود أن نقوله هنا هو أن الضمير غير المتوقع هو، على وجه التحديد،

الضمير غير الافتراضي. فإذا قال أغلبية المشاركين بأن المخاطبة بـT، هو أمر غير متوقع فإننا نستنتج أن صيغة V هي الصيغة "المتوقعة" أو الصيغة الافتراضية. وعلاوة على ذلك، فإن عدد من يذكرون أمثلة للمخاطبة غير المتوقعة من أي شكل تعد أعلى بين الفرنسيين (٨٧٪، ٧١/٦٢) عن نظرائهم من الألمان والسويديين (٧٢٪، ١٩٨/١٤٢، و ٦٧٪، ١٢٤/٨٣ على الترتيب). وهكذا يتضح لنا البروز النسبي لصيغ المخاطبة لكل هذه المجموعات المختلفة من أفراد الدراسة.

الجدول رقم (٣,١). نسبة الاستجابات التي أفادت عن أسلوب مخاطبة غير متوقع في الفرنسية والألمانية والسويدية.

	الفرنسية	الألمانية	السويدية
الضمير T غير المتوقع	٧٧	٥٨	٤
الضمير V غير المتوقع	٢٣	٤٢	٩٦
المخاطبة غير المتوقعة (T و/أو V)	٨٦	٧٢	٦٧
العدد الإجمالي (N)	(٦٦)	(١٥٥)	(٨٣)

N تعني العدد الإجمالي لأفراد الدراسة الذين أجابوا عن سؤال محدد.

توضح تعليقات المشاركين أيضاً أن صيغة V هي الضمير الافتراضي في الفرنسية كما يتضح من الاقتباس التالي:

[إذا لم تكن تعرف أي ضمير ينبغي أن تستخدمه، فاستخدم الضمير vous مباشرة لأنه الأيسر. إنه المحايد حقاً. إن استخدام vous يعد محايداً جداً؛ فهو يعني "أننا نضع مسافة بيننا" وهو يعني "أننا لا نعرف بعضنا البعض جيداً"، إلخ].

(باريس، مجموعة الدراسة ١، محاسب، ٢٩ عاماً)

على أن هذا الأمر أقل حسماً في الألمانية، غير أن الضمير V عند الأغلبية هو الضمير الافتراضي، على الأقل في المقابلات الأولى:

[في البداية، حينما أذهب إلى مكان ما فإنني أستخدم Sie "أنت، للرسمية والاحترام"، لأنني لا أعرف من أخاطبه، لا سيما إن كان المخاطب شخصاً يحظى بالاحترام، ثم بعد ذلك حينما [...] نعمل سوياً مع نفس الشخص أكثر وأكثر خاصة إذا كنتما في نفس المكتب فسينتهي بكما الأمر تلقائياً إلى تبادل المخاطبة بـdu "أنت، الخاصة بالعفوية والمساواة" تلقائياً، ويبدأ استخدامها منذ ذلك الحين. [إن المخاطبة باستخدام V] لا تعني بالضرورة أن علاقتكما ليست على ما يرام، [...] بل يمكن أن تكون بينكما علاقة جيدة].
(مانهايم، مجموعة الدراسة ٢، عامل رعاية منزلية، في الأربعينات).

تتضح مكانة الضمير du كضمير افتراضي للمخاطبة في السويدية من خلال الاقتباس التالي، الذي يشير المشارك فيه، بصفة خاصة، إلى حركة "الإصلاح باستخدام du" du-reform إبان فترة الستينيات من القرن الماضي:

[ثمة وقت بدأت فيه حركة "الإصلاح باستخدام du"، وقبلها لم يكن استخدام du شائعاً، غير أنه بعد ذلك، و بطريقة بدت غريبة نوعاً ما في البداية بدأ استخدام صيغة الضمير T؛ كنت أشعر بغرابة تلك المخاطبة، ولكن الآن لم يعد الأمر كذلك على الإطلاق. في البداية، لم نكن قد تعودنا على هذا الأمر. لم يكن هذا الأسلوب الجديد فجائياً، بل صار بصورة تدريجية ودون أن نفكر بالأمر؛ لم يحدث هذا بين عشية وضحاها، ولكنه استغرق سنوات]
(فاسا، الاستبانة ٣، معلمة متقاعدة، ٦٧ عاماً).

(٣,١,٢) الصيغ الاسمية Nominal Forms

في الإنجليزية، يتضح التنوع في أسلوب المخاطبة في عدد من الصيغ الاسمية، بدءاً من الصيغ الشبيهة بصيغة T 'T-like'، مثل صيغة الاسم الأول، واستخدام الألفاظ mate "رفيق" و dear "عزيز" إلى استخدام المصطلحات الشبيهة بالـV 'V-like' مثل استخدام لفظ التبجيل + الاسم الأخير، والألفاظ Sir/Madam "سير/مدام" واللقب + الاسم الأخير. وقد كان استخدام لفظ التبجيل + الاسم الأخير هو الصيغة الافتراضية إلى عهد قريب. يوضح الاقتباس التالي من مجموعة الدراسة في لندن كيف أن استخدام الاسم الأول أصبح أكثر شيوعاً، حتى في مجالات ومؤسسات كان ينظر إليها على أنها معاقل التقليدية مثل مجال القانون (انظر أيضاً الفصل الرابع):

أجد أن الشيء الطبيعي هو أن أستخدم الاسم المسيحي Christian name (الاسم الأول)، إلا أننا ننادي كافة عملائنا بالاسم الأول غير أنه رغم أنني أعمل في بيئة تقليدية جداً، هرمية البناء، وهي إحدى الشركات القانونية.
(لندن، مجموعة الدراسة، محام ذكر، ٣٤ عاماً).

يعلق المشاركون الآخرون في نفس مجموعة الدراسة على هذا الاستخدام للاسم الأول، ويوضح بعضهم أن الاسم الأول قد أصبح صيغة المخاطبة الاسمية الافتراضية:

<كيف يكون الشعور في اعتقادك حينما تخاطب شخصاً باسمه الأول؟ هل تشعر بالراحة إزاء هذا الأمر؟>
(١) شخصياً، لا أتذكر آخر مرة لم أفعل فيها هذا. [ضجة عامة تدل على الموافقة]

(٢) إنني متفق بأني قد أكون مرتاحاً لأمر كهذا [...]. إنني أسعى جاهداً لكي أخاطب الجميع بالاسم الأول، لكن أحياناً أشعر كما لو كنت أخرق الرسميات حين أخاطب الناس باستخدام الاسم الأول. وإذا امتعض شخص من هذا ورد قائلاً "لا يمكن أن تخاطبني هكذا، إنك لا تناديني بكلمة Mr"، فإنني لا أكترث بالأمر.
(لندن، مجموعة الدراسة، (١) طالب، ٢٣ عاماً، (٢) موظف دعم إسكاني، ٢٨ عاماً).

يردد المشاركون في مناقشات مجموعات الدراسة دائماً الألفاظ التي تتعلق بالمعاملات الخدمية service encounters مثل pet "محبوبي المدلل" و love "حبيبي" و dear "عزيزي" وهي ألفاظ، غالباً ما تستعملها النساء. ومن الألفاظ التي تستخدم أيضاً في مجال المعاملات التجارية لفظا Sir "السيد" و Madam "السيدة" (انظر الفقرة ٤,٥,٤ لمزيد من النقاش). أما اللفظ mate "رفيق" فيشيع استخدامه بين الرجال، ولأغراض متعددة (انظر الفقرة ٣,٦,٣).

في اللغة السويدية، تستخدم ألفاظ التبجيل والألقاب استخداماً مقتضباً، ويشيع استخدام الاسم الأول + الاسم الأخير في السياقات الرسمية. أما في اللغتين الفرنسية والألمانية فيعد الاسم الأول هو الصيغة الاسمية الافتراضية المصاحبة للضمير T؛ بينما الصيغة الافتراضية لـV في الألمانية تتمثل في استخدام لفظ التبجيل (اللقب) + الاسم الأخير (مثل استخدام Herr (Professor) Müller "السيد الأستاذ مولر") ولفظ التبجيل + الاسم الأخير (Madame Chirac "مدام شيراك") أو استخدام لفظ التبجيل بمفرده (كاستخدام Madame "مدام" فقط) في الفرنسية. غير أن صيغة "الضمير V + الاسم الأول" تستخدم أيضاً في بعض السياقات ويمكن اعتبارها صيغة وسيطة. وتستخدم تلك الصيغة في اللغة الفرنسية، على سبيل المثال، مع آباء وأمهات الأصدقاء وفي بيئة العمل (انظر الفقرة ٤,١,١ و ٤,٤,١). في اللغة الألمانية، يستخدم كبار السن الضمير V + الاسم الأول مع

الشباب الذين كانوا يعرفونهم منذ نعومة أظفارهم (ارجع إلى الفقرة ٤,١,٢). وفوق ذلك، هناك تركيب وسيط آخر في الألمانية هو التركيب المكون من الضمير T + لفظ التبجيل + الاسم الأخير. فكانت الصيغة الافتراضية التقليدية للمخاطبة في الألمانية والفرنسية مع ذوي الألقاب (مثل professor الأستاذ، doctor الدكتور، minister of state وزير الدولة، judge القاضي، clergy رجال الدين) تقوم على استخدام لفظ التبجيل + اللقب (+ الاسم الأخير) مثل Herr Professor "السيد الأستاذ" أو Madame la Présidente "السيدة الرئيس"، غير أن معدل استخدام الألقاب في ألمانيا وفرنسا، وإلى حد أقل في النمسا، قد انخفض بصورة ملحوظة (انظر الفصلين الرابع والخامس).

(٣,٢) الدلالات الاجتماعية لأشكال المخاطبة بالضمير
Social Meanings of Pronominal Address Forms

فيما يلي نركز على صيغ الضمائر في الفرنسية والألمانية والسويدية، ونظراً لأن الضمير you فقط هو صيغة المخاطبة بالضمير في الإنجليزية، كما رأينا في الفقرة السابقة، فإننا لن نتناول اللغة الإنجليزية هنا.

(٣,٢,١) الفرنسية French

في اللغة الفرنسية، تبين لنا بيانات مجموعة الدراسة أن هناك (أ) مواقف يعد فيها الضمير tu "أنت، الخاص بالعفوية والمساواة" هو الصيغة الافتراضية للمخاطبة، مثل المواقف المرتبطة بالأسرة والأصدقاء المقربين، و (ب) مواقف يعد فيها الضمير vous "أنت، الخاص بالرسمية والاحترام" هو الصيغة الافتراضية للمخاطبة مع الغرباء، لا سيما في إطار علاقات العمل ذات التسلسل الهرمي (انظر الفصل الرابع أيضاً). بصفة عامة، يربط المشاركون بين الضميرين وبعض الدلالات الاجتماعية الأساسية كما يلي:

- تتساوى vous مع مفاهيم الاحترام والتأدب والحيادية وكذلك التفاوت وعدم تعدي الحدود الاجتماعية في العلاقة.
- تتساوى tu مع مفاهيم الصداقة، والقرب، والعاطفة ووشائج القربى.

يلخص لنا محام باريسي شاب هذه المعاني السابقة كما يلي:

[إن الضمير Tu يسقط كل الحواجز التي يفرضها استخدام الضمير vous، أي حواجز التفاوت، والتأدب والاحترام، أو حواجز ضرورة البدء بالألقاب مثل البدء باللقب monsieur "مسيو"، وأشياء مثل ذلك. ومن الواضح أنك حين تتحرك صوب استخدام tu [...] فإنك تكون بصدد علاقة أكثر مباشرة. وحين يكون لك خط مباشر، يمكن لك حينئذ أن تختصره وتحمِّل عليه ما تريد. وحينما تتخاطب بـ vous يكون الخط أطول من ذلك و مليئاً بالعقد.] (باريس، الاستبانة ٣، محام، ٣٢ عاماً).

يعاد تأكيد هذه الدلالات التقليدية من خلال الاقتباس التالي، غير أن المشارك يظل على رأيه في أن tu، مثل vous، يمكن أن يستخدم للتعبير عن الاحترام في بعض الحالات. وهذا يبين أن العوامل السياقية يمكن أن تعلل لاستخدام ضمير المخاطبة، مما يوضح احتمال تعدد وظائف الضمير الواحد:

[يعد الضمير tu هو ضمير الصداقة، بينما الضمير vous هو الضمير الذي يقيم الحواجز. أما tu، فبحسب الحال، فهو للصداقة في بعض الحالات، وفي حالات أخرى يمكن أن يكون تعبيراً عن الاحترام وهو ما يمكن أن يعبر عنه الضمير vous أيضاً. فالأمر يعتمد على السياق.] (باريس، الاستبانة ٥، مديرة، ٤٧ عاماً).

يؤكد مشاركون آخرون على إمكانية أن يأخذ شكل ما سمات الشكل الآخر، فكما قال أحد الباريسيين: "يمكن أن تستخدم vous دون أن تكون بالضرورة تعبيراً عن

احترام الآخرين" (باريس، الاستبانة ١٢، سمسار عقارات، ٣٣ عاماً)؛ وكما قال آخر: "يمكن أن تظهر بالغ الاحترام لشخص ما رغم مخاطبتك إياه بـ tu" (باريس، الاستبانة ١٠، مدير إداري، ٦٠ عاماً).

وتذكر أقلية من المشاركين أنه ليس لديهم أسلوب مفضل تجاه ما يجب أن يخاطبوا به، غير أن الدلالات الاجتماعية التقليدية الكامنة لصيغتي ضمير المخاطبة لا تزال باقية، حتى في الوقت الذي يتعدى فيه استخدام tu إلى مجالات جديدة:

[لا أبالي بهذا الأمر. فهناك أصدقاء لأولادي البالغين يأتون لزيارتنا أحياناً، بعضهم يستخدم tu مباشرة معي، وبعضهم يستخدم vous. لا أبالي بهذا الأمر. عندما يخاطبونني بـtu، أقول لنفسي "إنهم يعتبرونني واحداً من جيلهم، وهذا أمر جيد". ولكن عندما يخاطبونني بـvous، فهذه عندي تعبير عن احترام أيضاً، لذا، لا أبالي بهذا الأمر. فلا أجد في نفسي تفضيلاً لصيغة على أخرى.] (باريس، الاستبانة ٣، ممرضة، ٥٣ عاماً).

تبرز مناقشات مجموعة الدراسة امتداد مجال استخدم tu إلى المجال الخاص بـvous. ويذكر العديد من المشاركين صراحةً أن استخدم tu هو الاستخدام الأكثر شيوعاً. ويعتبر أحد المشاركين أن tu و vous لم يعودا مقننين الاستخدام. لقد بدأ الضمير tu يغزو "المجال العام" public sphere:

[إن لدي انطباعاً بأن كلا الضميرين tu و vous كانا مقننين بدرجة أكبر في الماضي. [...] فقد كانت vous تستخدم في كل الأوقات بينما كانت tu تستخدم في المجال الخاص. وإن لدي انطباعاً الآن بأن استخدام tu قد امتد [...] أكثر ليشمل المجال العام كله، باستثناء الغرباء والذين تخاطبهم بالضمير vous.] (تولوز، مجموعة الدراسة، استشاري تربوي، ٢٩ عاماً).

يؤكد مشاركون آخرون أن الضمير tu في طريقه ليصبح الأكثر انتشاراً. وتعتبر إحدى النساء، وتبلغ من العمر ٣٢ عاماً وتعمل في صناعة الأزياء في باريس، أن الشباب يتخاطبون بـtu بصورة أكثر عفوية، غير أنه حينما تتبدى في الصورة مسائل التسلسل الهرمي الاجتماعي والاحترام، نجدهم يقفون عند vous:

[أرى أنه من الخطأ الاعتقاد بأن الشباب لم يعودوا يستخدمون vous. فنحن نتخاطب بـ tu بصورة أكثر عفوية [...]. ولكن بمجرد أن يتغير المكان و تلوح مسألة التسلسل الهرمي الاجتماعي أو الاحترام، فإننا دائماً ما نلجأ إلى المخاطبة بـvous.] (باريس، مجموعة الدراسة ١، مصممة أزياء، ٣٢ عاماً).

هكذا نجد أن هذه المرأة تعتبر أن المتحدثين الفرنسيين من الشباب لا يزالون يسترشدون بالدلالات الاجتماعية التقليدية للضميرين، على الرغم من تزايد المخاطبة بـtu بين أبناء جيلها.

(٣,٢,٢) الألمانية German

اللغة الألمانية تشبه باللغة الفرنسية من حيث وجود سياقات يكون فيها الضمير T هو الضمير الافتراضي للمخاطبة بين أفراد الأسرة (انظر الفقرة ٤,١) ومن حيث وجود سياقات أخرى يكون فيها الضمير V هو الضمير الافتراضي المستخدم بين الغرباء ومع الأفراد الذين نحتاج أن نشعرهم بعدم انتمائهم إلى الجماعة outgroupness. فلا يطرح أغلب المفحوصين ألفاظاً محددة لوصف الدلالات الاجتماعية لضمائر المخاطبة في الألمانية، ولكن يرى البعض أن الضمير du "أنت" يستخدم للتعبير عن معان مثل القرب closeness والعلاقات الشخصية، والعلاقات الخاصة والعلاقات الحميمة، ويرون أن الضمير Sie "أنت" يعبر عن "التفاوت الاجتماعي" و "الاحترام".

في كلتا اللغتين نجد أن هناك دائماً منطقة رمادية، حيث يكون الضمير الافتراضي هو إما V أو T. وعادة ما يكون الضمير V هو الضمير الافتراضي، وفي الأغلب يكون V هو الضمير الافتراضي في المقابلات الأولى ثم يحدث بعد ذلك تحول سريع إلى الضمير T أو قد يظل الضمير V هو الضمير الافتراضي للأبد أو لفترة طويلة من الزمن. وقد يعزى هذا التأرجح إلى ميول من جانب الفرد أو من جانب أفراد الشبكة التي ينتمي إليها و/أو طبيعة التفاعل، أو مدى تأثير المتغيرات الاجتماعية المختلفة وتفسيرها (انظر الفقرة ٣,٤، و ٣,٥، والفصل الرابع).

تمتد المنطقة الرمادية في الألمانية أكثر من الفرنسية، نظراً لتزايد المخاطبة بالضمير T في الألمانية، وأيضاً نظراً للتباين الكبير في الدلالات الاجتماعية وارتباطها بدور المخاطبة في العلاقات الإنسانية بين المتحدثين الألمان. لقد ظهر هذا الاختلاف في الرؤى حول الدلالات الاجتماعية في مجموعات الدراسة الألمانية. فقد عبر أحد المشاركين في مانهايم تعبيراً حذراً عما يمكن تسميته بالموقف "التقليدي" ويمكن تلخيصه كالآتي: نظراً لأن العلاقة التي تقوم على المخاطبة بـdu تعد بصفة عامة علاقة لا رجعة فيها unretractable فإنها تمثل التزاماً حياتياً لا يستهان به (راجع (Kretzenbacher 1991: 59-60)):

[ربما يعد استخدام du خطوة كبرى في بعض الأحيان، بل هي، من بعض النواحي، الخطوة الأكبر التي يمكن أن تتخذها أو ينبغي عليك اتخاذها، أما ما يأتي بعدها فهو أيسر.] (مانهايم، مجموعة الدراسة ١، عامل رعاية منزلية، في الأربعينيات).

على النقيض من ذلك كان هناك مشاركون آخرون في مجموعة الدراسة في مانهايم يرون إمكانية تبادل T و V لمكانيهما:

[عندما تحب الناس أو تعرفهم جيداً، فإنه لا فرق بين مخاطبتهم بـSie أو du] (مانهايم، مجموعة الدراسة ١، معلمة فنون، حوالي ٣٠ عاماً).

في حين لم تلق هذه الرؤية قبولاً من كل أفراد مجموعة الدراسة إلا أنها كانت تمثل موقف الأغلبية، لا سيما بين الأجيال الشابة. وتذكر معلمة بالتعليم الثانوي من مانهايم مناقشة جرت مع طلابها طرح فيها أحد الطلاب ثنائية التمايز بين الضمير Sie الذي يعبر عن "المحبة القلبية والصداقة والدفء"، والضمير du الذي يعبر عن "عدم الاكتراث على الإطلاق". وهنا نلاحظ انقلاب الدلالات الاجتماعية "التقليدية" المرتبطة بصيغ ضمائر T و V مما يضعهما على طرفي النقيض في سلسلة التفاوت الاجتماعي.

من الواضح أنه لا تزال هناك قواعد تحكم اختيار ضمير المخاطبة، وسوف نناقشها في هذا الفصل، غير أن المنطقة الرمادية التي وصفناها قبل ذلك، وكذلك أنماط التغير، قد أفرزت قدراً كبيراً من عدم التيقن بين المتحدثين الألمان، وهو شيء يعتبره البعض نوعاً من التحدي:

[إن هذا لهو الشيء المثير حول التواصل. بما أنك تقول إن هناك سوء استخدام للضميرdu [...] ومن المحتمل أن تعتقد [...] أنك تستطيع أن تظهر الاحترام لشخص ما باستخدام du، فيمكن لشخص آخر، إذن، أن يستغل ذلك، فيبدأ بمخاطبتك بـdu بشكل تبادلي أليس كذلك؟ لا أستطيع، للأسف، التنبؤ بتفسير المتحدث معي للضميرdu وفق استخدامي له.] (لايبتسيج، مجموعة الدراسة ١، أخصائية نفسية، ٣٠ عاماً).

[يتوجب عليك هنا أن تكون أكثر حصافة من ذي قبل، حيث يجب أن تفرق بين مدى لياقة استخدام هذا الضمير من عدمه [...] كان الأمر من قبل يسير وفق قواعد أكثر بساطة.] (لايبتسيج، مجموعة الدراسة ١، رجل دين، ٥٠ عاماً).

على النقيض من اللغة الفرنسية، تمتلك اللغة الألمانية ضمير جمع للضمير du، وهو الضمير ihr "أنتم" والذي يستخدم أيضاً عند مخاطبة اثنين أو أكثر، بعضهم ينادى بالمفرد du، وبعضهم بالمفرد Sie. ويستخدم الضمير ihr أيضاً، بصورة تنم على الصداقة والعفوية، مع الأفراد الذين تتم مخاطبتهم بـSie. ويربط الحوار التالي بين اثنين من المفحوصين في مجموعة الدراسة في فيينا بين استخدام الضمير ihr كصيغة وسطى ومفهوم عدم التعدي على الأمور الحساسة:

(١) ربما تكون الحساسية الشخصية لدى بعض الأشخاص أقل حدة. فإذا أردت أن أخاطب الآخرين بـ Sie ووجدت أنهم لايخاطبونني بنفس الضمير، فإنني أكون أكثر حساسية تجاه هذا الأمر مقارنة بإذا ما خاطبني أحد بـ ihr في هذه الحالة.

(٢) يرى الناس أن ihr صيغة وسطى.

(١) إنني أرى أن ihr صيغة وسطى. فهي تتميز بأنها صيغة غير ملزمة.

(فيينا، مجموعة الدراسة ٢، (١) معلم ومدير بالتعليم الثانوي، ٥٧ عاماً، (٢) متقاعد، ٧٧ عاماً).

ويستخدم الضمير ihr أيضاً حينما لا يشار إلى الشخص المخاطب كفرد، ولكن ككيان جمعي ينتمي إليه المخاطب المشار إليه، مثل قولك Wie viele Bücher habt ihr in der Bibliothek? "كم كتاباً لديكم في المكتبة؟"، فإنك بهذا السؤال تشير إلى مكتبة الجامعة التي ينتمي إليها المخاطب، وليس إلى مكتبته الشخصية.

(٣,٢,٣) السويدية Swedish

المستفاد من تعليقات المشاركين في البيانات السويدية هو أن du "أنت، للعفوية والمساواة" هو الضمير المحايد المتوقع، أما الضمير ni "أنت، الخاص بالرسمية

والاحترام" فهو يمثل حالة خاصة ويمكن أن يؤدي استخدامه إلى تعقيدات في تفسير الأفراد للموقف الاتصالي:

[إذا خاطبني بـni، فإنني أنأى بنفسي وأتخذ خطوة للخلف، وأكون متحفزاً. [...] هناك خطأ ما إذا خاطبني أحد بـni] (فاسا، الاستبانة ٢، رسامة، ٢٧ عاماً).

ترتبط الدلالات الاجتماعية للضميرين T و V ارتباطاً واضحاً بالفروق بين الأجيال. وفق ما ذكره المشاركون في مجموعة الدراسة في فاسا، تربى الأفراد الذين تزيد أعمارهم عن ٤٠ عاماً على مخاطبة الأفراد غير المألوفين بصفة عامة بصيغة V، إلا أن التعليقات التي أوردها أفراد مجموعة الدراسة من الشباب تشير إلى الريبة الكبيرة التي يستشعرونها إزاء الضمير الواجب استخدامه في هذه المواقف. لقد ترعرع هؤلاء الشباب في وقت تزايد فيه استخدام صيغة T. على النقيض من جيل الشيوخ الذين تربوا في المدارس على مخاطبة من لا يعرفونه من الناس بصيغة V، فإن جيل الشباب لم يجد أمامه مرشداً قدوة إزاء الضمير الواجب استخدامه:

[إنني أنتمي إلى جيل كان يستخدم du دائماً، ولكن حين تتقدم بك السن وتضطر إلى إجراء مكالمات تليفونية أكثر رسمية، تكون في حيرة إزاء ما ينبغي استخدامه: ni أم du [...]، إنك تتساءل في كل حين حول ما ينبغي أن تقول. وبعض الناس يمتعضون إذا ما خاطبتهم بـdu] (فاسا، مجموعة الدراسة ١، مديرة مبيعات، ٢٩ عاماً).

يعد الموقف في السويد أكثر تعقيداً. فجيل الشيوخ (فوق ٦٠ عاماً) هم أكثر المؤيدين لاستخدام صيغة ضمير T العام، وهم يذكرون أيضاً أن لديهم مشاعر سلبية قوية تجاه استخدام صيغة الضمير V. ويوضح الاقتباس التالي الإيحاءات السلبية لدى كبار السن في السويد حول ni، نظراً لأنها كانت تستخدم من جانب واحد وبصورة تعبر عن التعالي:

[لا أشعر بالامتهان حين يستخدم أحد ما الضمير ni، غير أني لا أحبه [...] عندما كنت صغيراً، كان من العجرفة مناداة الناس باستخدام ni [...]. لقد كانت ni تستخدم في مخاطبة الخادمات.] (جوتنبرج، مجموعة الدراسة ١، صحفية متقاعدة، ٦٧ عاماً).

يعد جيل الشيوخ هم الجيل الوحيد الذي مر بتجربة استخدام الألقاب استخداماً مفرطاً وبتجربة تحاشي استخدام الضمائر مع المتخاطب إذا لم يكن لقب المتخاطب معروفاً، لذا فليس من عجب أن يكون هؤلاء من مؤيدي استخدام الضمير T العام. فقد كانت النظرة إلى الضمير ni كضمير يدل على عدم التأدب على الإطلاق أمراً خافياً على الطائفة الأصغر سناً بين أفراد المشاركين في مجموعة الدراسة (تتراوح أعمارهم بين٢٠-٢٧ عاماً)، كما تقول صحفية شابة تبلغ من العمر ٢٧ عاماً: ("لم أكن أعرف أن ni يمكن أن تعبر عن العجرفة"). وأخيراً، نجد تبايناً في استخدام المخاطبة لدى الجيل الأوسط (تتراوح أعمارهم بين ٣٦-٥٣ عاماً)، حيث يذكر بعض المفحوصين أنهم لا يستخدمون الضمير V على الإطلاق بينما يستخدمه الآخرون في بعض الحالات الخاصة (لا سيما عند مخاطبة شخص أكبر سناً، انظر أيضاً الفقرة ٣,٤,٣). على أية حال، تشير مناقشات مجموعة الدراسة إلى نفس الاتجاه الذي تشير إليه بيانات المقابلة، غير أن جيل الشباب في مجموعات الدراسة أفادوا أنهم ما كان لهم أن يستخدموا الضمير المعبر عن صيغة V إذ كانوا يعتبرونه صيغة "غريبة" عليهم لم يألفوها من قبل، وهذا يبين مدى شيوع صيغة T في اللغة السويدية اليوم.

(٣,٣) التحول
Transition

كيف يتحول الناس من صيغة للمخاطبة إلى أخرى؟ هناك طرق واضحة للتعبير عن هذا الانتقال. ففي اللغة الفرنسية يمكن للشخص أن يقول لمخاطبه، على سبيل المثال، ("هل يمكن أن نتخاطب بـtu؟") أو ("هل نقول tu لبعضنا البعض؟"):

[<متى تتحول من استخدام vous إلى استخدام tu في علاقة ما؟> حينما يعرف كل منا الآخر ونكون على قدم المساواة، حينما يكون لدينا انطباع بالانتماء إلى نفس الجماعة. وفي كل مرة أسأل محدثي "هل نتخاطب بـtu؟" كانت الإجابة بالموافقة. لقد كنت أسأل هذا السؤال بعد أن تكون tu قد خرجت مني تلقائياً، وبصورة طبيعية.] (باريس، معلم/محاضر متقاعد، ٦٢ عاماً).

في الألمانية، تكون التعبيرات الموازية لسابقتها الفرنسية هي (Sollen wir uns duzen? "هل تمانع أن نتخاطب بـdu؟") أو (Wir könnten uns ja duzen "يمكن أن نتخاطب بـdu، أليس كذلك؟"). لقد كان التحول إلى استخدام صيغة T تقليدياً مصحوباً بتبادل أقداح الشراب (Brüderschaft trinken "نشرب نخب صداقة أخوية")، أو قد يكون التحول بتبادل القبلات بين الجنسين، غير أن هذه الحالة نادرة الحدوث اليوم.

في كلتا اللغتين، الألمانية والفرنسية، أوضح بعض المشاركين أنه ليست هناك ضرورة لوجود انتقال شكلي ظاهر:

<هل تستعمل، في الأغلب، تعبيراً مثل "هل يمكننا أن نتخاطب بـtu؟ أم أن هذا الأمر يكون ضمنياً؟"> إنني أقول "هل يمكننا أن نتخاطب بـtu؟" وأعتقد أن صيغة كهذه تستخدم أكثر في بيئة العمل. ففي البداية، نتخاطب بـvous، ثم سرعان ما نتحول إلى tu. تتباطأ وتيرة هذا التحول في المخاطبة في الخارج (أي خارج إطار العمل).] (باريس، الاستبانة ٩، محاسب، ٣٣ عاماً).

[بين الحين والآخر، إذا كنت تتعامل مع شخص ما، وتسير العلاقة بينكما على ما يرام، فإنه في لحظة ما، وبدون سابق إنذار، تبدأ المخاطبة بـdu وحينئذ يكون الأمر قد استتب. لقد قمت بهذا الأمر عشرات المرات.] (مانهايم، الاستبانة ٦، موظف إداري، ٦١ عاماً).

في اللغة الألمانية، يمكن لأحد المتخاطبين أن ينزلق إلى استخدام T أو الاسم الأول ثم ينظر إذا كان المخاطَب ينجذب معه إلى نفس الخط أم لا. وإذا لم ينجذب المخاطَب فيمكن التعلل بما حدث على أنه مجرد زلة لسان:

[إنني أفعل ذلك بكل بساطة (أي استخدام du) ثم يكون رد الفعل بعد ذلك مثيراً للدهشة، غير أن تلك المفاجأة تكون إيجابية وتُقبَل عن طيب خاطر.] (مانهايم، الاستبانة ١١، عالمة نفس، ٤٥عاماً).

أوضحت مناقشات مجموعة الدراسة أنه في بعض السياقات كان التحول من التخاطب بSie إلى التخاطب بdu من علامات التحول المرحلي في حياة الإنسان، ويبدأ هذا التحول بانتهاء علاقة هرمية ما hierarchical relationship، ومن أمثلة ذلك حديث المشرف مع طالب الدكتوراه بعد الانتهاء منها وحديث المعلم مع طالب في نهاية المرحلة الثانوية. ويتمسك بعض المشاركين بالقواعد التقليدية والتي بموجبها يخوّل للشخص الأكبر سناً فقط، أو الأكثر أقدمية، أو النساء في علاقتهن بالآخرين إن لم يكن مستواهم متكافئاً، أن يكونوا هم البادئين باستخدام du في العلاقة.

[حسناً، أعتقد أن هذا الأمر يعتمد على من تتحدث إليه، من ناحية العمر، وأيضاً من حيث درجة التعارف المتبادل. ويعتمد الأمر أيضاً على الأصدقاء عندما تكون على معرفة بهم. بالفعل يمكن أن تقول مباشرة "هيا، دعنا نستخدم du مع بعضنا البعض" [...]، بعد مدة من الزمن يمكن أن تقول لهم مباشرة "زملائي، هيا هيا، لا نتخاطب إلا بdu"، ولكن لا يحدث ذلك من البداية. فهناك قواعد معينة تتبع في المخاطبة، فالأكبر سناً يبدأ باستخدام du مع الأصغر سناً، والرجل يبدأ في ذلك مع المرأة، لكني أعتبر تلك القواعد قد تخطاها الزمن. فالأصغر سناً لا يستنكف عن استخدام du، هذا أمر واضح. ولعلك تكون سعيداً بهذا الأمر. إنها مجاملة لك.] (مانهايم، الاستبانة ٩، مديرة منزل، ٤٣ عاماً).

غير أنه من ناحية أخرى هناك شعور لدى الكثير من أفراد مجموعة الدراسة الألمانية أن تلك التقاليد تنهار، كما عبر عنها المشارك التالي بنوع من الحذر:

[عندما يؤسس الشاب علاقة تقوم على مخاطبة الأكبر سناً بـdu، مثلاً، فمن يبالي بهذا؟ إنها مسألة تعاون مهني وتفاعل يقوم على الاحترام.] (لايبتسيج، مجموعة الدراسة ١، موظف حكومي، ٣٢ عاماً).

وكما سنناقش في الفقرة (٤,٤,٢)، فإن هناك تقليداً لغوياً مخاطبياً آخر على وشك الزوال في الألمانية يمثل مرحل انتقال عمرية أخرى، ألا وهو استخدام صيغة V من قبل المعلم عند مخاطبته للطالب بعد سن معينة.

في السويدية الحالية، لا يوجد وسيلة تحول ظاهرة من الناحية اللغوية، إذ إن الضمير T هو الصيغة الافتراضية. ففي السويدية لا يستخدم الفعلان dua و nia لوسم التعبير من صيغة مخاطبية إلى أخرى، ولكن لوسم الإشارة إلى الطريقة التي خوطب بها شخص ما:

[لا يوجد استثناء يمنع من استخدام الضمير du إلا في حالة العائلة المالكة. لقد سألت زملائي في العمل، فلم أجد أبداً من يتخاطب بـni. إن أبناء جيلي لا يستخدمون ni.] (جوتنبرج، مجموعة الدراسة ١، مصممة تقنية معلومات، ٤٠ عاماً).

في الماضي القريب، وحتى نهاية خمسينيات القرن الماضي وخلالها، كان يعبر عن الانتقال نحو مزيد من الحميمية بعبارات مثل "هلا تخلينا عن الألقاب؟". مثل هذه التعبيرات تدل على التحول من التخاطب بلفظ التبجيل أو اللقب + الاسم الأخير إلى التخاطب بضمير الغائب إلى استخدام صيغة الضمير T والاسم الأول. لقد كان هذا التحول مصحوباً أحياناً بطقوس رسمية لتبادل الألقاب "طقوس تبادل الألقاب

باستخدام du" (the du-toast)، كما هو الحال في اللغة الألمانية. لقد كان التحول إلى استخدام صيغة T والاسم الأول مسألة معقدة، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بعلاقة بين رجل وامرأة. في الاقتباس التالي يذكر لنا أحد المشاركين في مجموعة الدراسة رواية عن طبيب اضطر للاستعانة بزوجته حتى يمكنه التحول إلى استخدام الضمير T مع عضوة من هيئة الأطباء بطريقة كانت مقبولة اجتماعياً في ذلك الوقت:

[تعرفت على امرأة كبيرة السن، وهي السيدة أندرسون، وكانت تعمل كمرشدة مع الطبيب والسكرتيرة. كان الطبيب والسكرتيرة يتحدثان إلى بعضهما بـdu. ذات يوم أخذت الطبيبة إجازة ليوم واحد، فجاءت زوجة الطبيب حينئذ وأخذت تنادي المرشدة دونما ألقاب، فقام الطبيب بدوره بمخاطبة المرشدة دون ألقاب بعد ذلك. دُهشت السكرتيرة كثيراً إزاء هذا التصرف، غير أنها قرأت بعد ذلك أن الرجل المتزوج لا يمكنه إسقاط الألقاب (عند مخاطبة النساء) حتى تكون زوجته قد سبقته إلى ذلك.] (جوتنبرج، مجموعة الدراسة ١، كاتبة متقاعدة، ٦٧ عاماً).

في ضوء الاقتباسات المستقاة من اللغة الفرنسية، والألمانية والسويدية، يمكن ملاحظة أن التحول يتضمن انتقالاً من استخدام V إلى استخدام T. وفي لغة مثل الإنجليزية، إذا أراد شخص أن يقلص المسافة الاجتماعية، فينبغي عليه اتخاذ خطوات مخاطبية شبيهة بما وجدناه في اللغات السابقة، ويمكن أن تتضمن تلك الخطوات دعوات صريحة إلى استخدام الاسم الأول، كما يتضح من المثال التالي:

نعم، إذا كان لي أن أسأل شخصاً مثلك [تقصد جين] قابلته في لندن أو في أي مكان آخر، حينئذ أبادر بمخاطبته قائلة "بالمناسبة، اسمي دوروثي"، وأتوقع منك أن تردي بالمثل وحينئذ أناديك باسمك، ولا أخاطبك بأي نوع من الألقاب أو صيغة أخرى محل الاسم. (نيوكاسل، مجموعة الدراسة، ممرضة متقاعدة، ٦٣ عاماً، جين، أم، ٤٤ عاماً).

(٣,٤) المتغيرات الاجتماعية: العمر
Social Variables: Age

لقد رأينا في الفقرة (٣,٢) أنه على الرغم من أننا قد نتوقع إجماعاً خفياً حول معنى T و V في المجتمعات اللغوية المختلفة محل الدراسة، إلا أن الواقع أن الهوية الاجتماعية للمتحدث تلعب دوراً في عدم ثبات الدلالات الاجتماعية المرتبطة بالأشكال المختلفة وتطورها. وفيما يلي، نبدأ في فحص بياناتنا من منظور الفئات الاجتماعية الأكثر تقليدية مثل العمر، والمكانة الاجتماعية قبل استعراض مبررات خيارات المخاطبة في إطارها السياقي و التداولي.

وكما نوهنا بالفعل في بعض المناقشات التي عرضناها في الفقرة (٣,٢)، فإن متغير العمر يعد أحد أبرز التصنيفات الاجتماعية. لقد أوضح البحث اللغوي الاجتماعي أن العمر عامل أساس في تفسير التنوع اللغوي، وبدا واضحاً من خلال أبحاث المخاطبة السابقة في الفرنسية، والألمانية، والسويدية، أن العمر، ولا سيما العمر النسبي، يعد فئة ذات مغزى (راجع على سبيل المثال (Gardner-Chloros 1991) للغة الفرنسية؛ انظر أيضاً الفقرة ٢,٢,٣ فيما يتعلق بالمسح اللغوي الذي قام به أليتزباخ وبيش (Allensbach and Besch 1998) للغة الألمانية، ومارتينسون (Mårtensson 1986) للغة السويدية). ومن المعروف في المجتمعات الغربية، عموماً، أن هناك اهتماماً متزايداً بمفهوم العمر، لا سيما مرحلة الشباب وأهمية أن تكون شاباً. وكما قالت إحدى المشاركات في باريس مازحة عندما سُئلت حول مخاطبتها بلفظ 'Madame' بدلاً من 'Mademoiselle' فردت قائلة 'c'est des rides' "إنها التجاعيد" (مساعدة في حضانة أطفال، ٥٣ عاماً). ويوضح الاقتباس التالي من مجموعة الدراسة في لندن تلك المسألة. ويتركز الحوار التالي حول استخدام ألفاظ التبجيل في المعاملات الخدمية ويعلق أحد المشاركين بأن المعادل الأنثوي لكلمة Sir قد زاد الأمر

تعقيداً بإضفاء عامل العمر، والذي يظهر تأثيره في المفاضلة بين لفظي التبجيل Miss "آنسة" و Madam "سيدة":

أوليست كلمة Sir كلمة عامة، فلماذا التفرقة بين Miss و Madam، ولا سيما حينما تخاطبن بلفظ 'Madam' أولاً ... (ضحك). غير أن المحك هنا هو العمر الذي يبدأ الناس في التحول إلى مخاطبتك بـMadam. إن هذه الصيغة الرسيمة لا تزال قائمة، غير أنه تبقى مشكلة المفاضلة بين Miss أو Madam. (لندن، مجموعة الدراسة، مديرة مالية، ٣٩ عاماً).

في عينات المقابلة الخاصة باللغة الفرنسية، والألمانية، والسويدية، يتراوح المدى العمري للمشاركين بين ١٨-٨٢ عاماً[٢]. ولسهولة المقارنة، يوضح الجدول رقم (٣,٢) تقسيم المشاركين إلى ثلاث فئات عمرية رئيسة.

الجدول رقم (٣,٢). نسبة مجتمع الدراسة في كل فئة عمرية حسب اللغة (الفرنسية، الألمانية، السويدية).

	الفرنسية	الألمانية	السويدية
تحت ٣١	٣٣	٤٠	٢٧
٣١-٥٠	٤٢	٣٤	٤٣
+٥١	٢٥	٢٦	٣٠
العدد الإجمالي (N)	(٧٢)	(١٩٨)	(١٤٤)

تم استجلاب آراء الأفراد حول العلاقة بين استخدام أساليب المخاطبة والعمر في الألمانية والفرنسية والسويدية بطرق متعددة. بادئ ذي بدء، اشتملت الاستبانة على سؤالين أساسيين يطلب فيهما من المشاركين التعليق على دور العمر

(٢) فيما يخص متغير الجنس تتحاز عينة المشاركين قليلاً نحو المرأة؛ في الفرنسية تبلغ نسبة النساء ٥١٪ من العينة، وتصل في الألمانية إلى ٥٣٪ والسويدية إلى ٥٩٪.

كمتغير لتحديد خيارات المخاطبة باستخدام الضمير: (١) يتناول السؤال الأول كيفية مخاطبة الشخص الغريب (الأكبر سناً، والأصغر سناً، ومن هو في نفس السن) عند سؤاله عن الاتجاهات في الطريق، و(٢) كيفية مخاطبة ضابط شرطة (الأكبر سناً، الأصغر سناً، من هو في نفس السن). وهنا يجب ملاحظة أن متغير التفاوت الاجتماعي الذي يحدد خيار صياغة أسلوب المخاطبة إنما يكمن غالباً في العمر النسبي وليس في العمر المطلق. في هذه الفقرة يتم تناول الإجابات المتعلقة بالسؤال الأول، وسيتم تناول السؤال الثاني في الفقرة التي تناقش المكانة الاجتماعية. لقد حرصنا في هذه النقطة أيضاً على تحصيل العديد من الإجابات التأملية حول متغير العمر من المشاركين، فوضعنا سؤالاً لهم في المقابلة حول العمر الذي يجب مخاطبتهم عنده باستعمال الضمير V، وهو سؤال يبدو بريئاً ولكنه أفضى إلى كثير من المداخلات بين المشاركين. وفيما يلي سوف نقدم الإجابات التي تم الحصول عليها من العينة الفرنسية والألمانية والسويدية ثم نتوجه إلى اللغة الإنجليزية بعد ذلك.

(٣,٤,١) الفرنسية French

يمكن أن نرى، وفق عينة الإجابات الفرنسية حول السؤال المتعلق بمخاطبة الغرباء، أن عمر المخاطب يعد متغيراً أساسياً في تحديد اختيار الضمير المناسب عند المخاطبة (هذا المتغير ذو دلالة إحصائية $p < 0.005$). يبين الجدول رقم (٣,٣) أن السياق الوحيد الذي يستخدم فيه الضمير V بنسبة ١٠٠٪ هو ذلك السياق المتعلق بمخاطبة الشخص الغريب الأكبر سناً، بينما يقرر ما بين ربع إلى خمس المشاركين استخدام الضمير T وليس V مع المخاطب الغريب من نفس العمر أو الأصغر سناً.

الجدول رقم (٣,٣). اللغة الفرنسية، مخاطبة الشخص الغريب بصيغة V* عند سؤاله عن الاتجاهات.

خيار المخاطبة مع	النسبة المئوية للمشاركين المستخدمين لصيغة V
شخص غريب، أكبر سناً بشكل دال، ومن نفس الجنس	١٠٠
شخص غريب، أكبر سناً بشكل دال، ومن الجنس الآخر	١٠٠
الغريب من نفس الجنس	٧٩
شخص غريب من الجنس الآخر	٨٢
شخص غريب، أصغر سناً من نفس الجنس	٧٦
شخص غريب، أصغر سناً، ومن الجنس الآخر	٧٥
المجموع (N)	(٧٢)

* يشمل ذلك المشاركين الذين ذكروا أنهم استخدموا T أو V.

ويعد هذا الاختلاف في اختيار أسلوب المخاطبة مع الغرباء من كبار السن والغرباء من نفس السن دالاً إحصائياً (حيث $p < 0.025$) ويعد الفرق بين الغرباء من كبار السن والغرباء من صغار السن دالاً إحصائياً بصورة أكبر (حيث $p < 0.005$)، وبالرغم من ذلك فإن الاتجاه العام هو استخدام vous مع الغرباء. ففي حالة الغرباء الأكبر سناً بشكل دال، يستخدم كافة المشاركين الضمير V، ولا تلعب سمات المتحدث دوراً يذكر في هذا. وعندما ننظر إلى البيانات نظرة أدق، يتضح أن الفئة العمرية الأصغر، سن ٣٠ عاماً أو أصغر، تستخدم بصورة دالة الضمير T مع المخاطبين من نفس السن بصورة تفوق الفئتين العمريتين الأخريين؛ فأكثر من النصف (٥٨٪) يستخدمون الضمير T، مقارنة بنسبة ١٠٪ فقط من ذوي الفئات العمرية بين ٣١-٥٠ عاماً، ولا يشمل ذلك الفئة العمرية التي تبلغ ٥١ عاماً فأكثر.

وبالنظر إلى بيانات المقابلات الكيفية والسؤال حول العمر الذي ينبغي أن يخاطب الشخص عنده باستخدام صيغة V، أجاب ٢٨ فرداً عن ذلك بصورة فورية

وذكروا أن هذا العمر يقع بين ١١-٤٠ عاماً (متوسط العمر يربو على ١٨ عاماً بقليل) وذكر البعض الآخر أن هذا العمر هو سن البلوغ أو سن الرشد ("لنقل حوالي ١٤ أو ١٥ عاماً") (باريس، الاستبانة ٢، مشغلة تليفونات، ٢٨ عاماً). على أنه يجب النظر إلى أن إجابات المشاركين ربما تكون متأثرة بمجالات ثلاث، وهي المدرسة والحياة العامة public life والحياة الاجتماعية social life، وكل منها يمكن أن تنتج إجابة مختلفة. يُخاطَب الشباب، بصفة عامة، بعد التخرج، أو في سن ١٨ عاماً، باستخدام صيغة V في تفاعلهم مع المجتمع الأوسع، غير أنه في إطار الحياة الاجتماعية، يستخدم النظراء من نفس السن تقريباً، الصيغة T تلقائياً ولمدة أطول.

يرى ٢٩ فرداً من المشاركين والذين يجدون من الصعب تحديد عمر معين تلقائياً يبدأ عنده استخدام صيغة المخاطبة V أن هناك أيضاً متغيرات أخرى. ومن خلال الإجابات النهائية لهؤلاء المشاركين، نجد أن المدى العمري الذي تستخدم صيغة المخاطبة V عنده يتراوح بين ١٠-٣٣ عاماً، أي أن متوسط العمر يبلغ ١٩ عاماً تقريباً. ويوضح الاقتباس التالي الصعوبة التي كابدتها إحدى المشاركات في إعطاء إجابة مباشرة لهذا السؤال حيث تبدأ حديثها بعبارة "على حسب الحال":

[على حسب الحال، يعتمد الأمر على الشخص الذي تخاطبه أمامك. <*لنقل ذلك، بصفة عامة*> لأنه إن كان أمامك... فكلمة "بصفة عامة" ليس لها معنى. فمثلاً، إذا خاطبني شاب بـvous، فسوف أرده قائلةً "لا، خاطبني بـtu"، فأنا لا زلت صغيرة. إن هذا يعطيني الانطباع بأنني كبيرة السن. [...] <*إذا دخلت إلى أحد المحلات، مثلاً، فحتى أي سن يبدو من الطبيعي أن يخاطبك الناس بـtu؟*> حسناً، ربما حتى سن ١٦. ١٤. نعم، ١٤، أو ١٥.] (باريس، الاستبانة ٢، صيدلانية، ٣١ عاماً).

في هذا المثال، هناك كثير من محاولات التملص من الإجابة من جانب المشاركين، فلم يستطع المشارك أن يعطي عمراً محدداً إلا حينما أحس بإلحاح السؤال من جانب القائم بالمقابلة والذي قام بتحديد سياق محدد للمقابلة وهو سياق المحل التجاري.

لا يدخل عامل العمر ضمن العوامل التي تتحكم في اختيار ضمير المخاطبة لدى عشرة من المشاركين؛ فاختيار ضمير المخاطبة عندهم يعتمد كلياً على المشاعر الشخصية:

[إنني لا أكترث بعامل العمر على الإطلاق. إن الأمر كله يتعلق بالشخص ومظهره <*هل يمكن أن تستخدمي* vous *حتى مع الأطفال؟*> نعم. <*إذن المسألة عندك لا تعتمد على العمر، إنها تعتمد على الشخص ذاته؟*> نعم.] (باريس، الاستبانة ٤، عاملة خدمة، ٤٢ عاماً).

إذن، حتى مع فئة اجتماعية من الفئات التي تبدو محكمة للوهلة الأولى كالعمر، يمكن لبعض الناس أن يعطي البعض إجابة فورية بينما يحتاج الآخرون إلى استحضار السياق حتى يصلوا إلى إجابة محددة؛ هناك أيضاً من يرفض عامل العمر كمتغير يحدد اختيار أسلوب المخاطبة. ورغم ذلك، ورغم التردد والمواربة التي يبديها بعض من أجريت معهم المقابلات، تشير الإجابات على نحو غالب إلى التحول إلى استخدام vous مع من بلغوا سن المراهقة أو الرشد.

وتشير أشكال مخاطبية أخرى، غير الضمير، إلى العمر. فالتحول من استخدام Mademoiselle "آنسة" إلى استخدام Madame "سيدة" يعد تحولاً يلعب فيه العمر المتغير الأكثر بروزاً. وفي الاقتباس التالي يشير المشارك إلى خرق القواعد المعمول بها في استخدام التعبيرين Mademoiselle و Madame وذلك عند المغازلة. وينطوي ذلك الخرق

على مخاطبة النساء كبيرات السن بـMademoiselle موحياً بذلك أن لهن مظهراً شاباً، ومخاطبة صغيرات السن باستخدام Madame، إظهاراً للاحترام وبالتالي تهيئة الفرصة للشروع في محادثة دون إظهار النوايا:

[لي صديق لديه رؤية فكاهية حيال هذا الأمر. يقول الصديق إنك إذا أردت أن تتجاذب أطراف الحديث مع السيدات، عليك أن تنادي السيدة التي تخاطب عادة Madame باستخدام كلمة Mademoiselle. وسوف تشعر المرأة ساعتها بالسعادة في الحال، وتجعلك تشعر بأنك عدت شاباً. ومن ناحية أخرى، إذا أردت أن تتجاذب أطراف الحديث مع شابة خاطبها Madame، حينئذ تأخذها الدهشة ومن السهل [...] الاستمرار في المحادثة لأنها تكون حينئذ تحت تأثير الدهشة، إنها علامة من علامات الاحترام. هذا هو أسلوب المداهنة.] (باريس، الاستبانة ٩، محاسب، ٣٣ عاماً).

ناقش بعض المشاركين (من الرجال) أيضاً التحول من استخدام لفظ المخاطبة jeune homme "الشاب" إلى استخدام Monsieur "السيد" مما يعكس تحولاً مشابهاً حدث بفعل التقدم في العمر:

[يخاطبني المزيد والمزيد من الشباب بـMonsieur، إنه لأمر فظيع. وهذا أمر غير متوقع لأنه منذ عدة سنوات مضت ما كان لهم ليخاطبوني Monsieur. فقد كانوا ينادونني ذات يوم jeune homme "أيها الشاب"، غير أني لم أقدر قيمة ذلك حينها، كان ذلك منذ ٢٠ أو ٢٥ عاماً. [...] عندما تخاطبني بـjeune homme يتولد عندي الانطباع بمسؤولية ما ملقاة على عاتقي. فلم أعد طفلاً، ولم أعد مراهقاً، ولكني لم أصل إلى Monsieur بعد. إنني شخص لا يزال في طور النمو.] (باريس، الاستبانة ٣، محام، ٣٢ عاماً).

(٣,٤,٢) الألمانية German

تظهر بيانات الاستبانة الألمانية نفس النمط الذي يظهر في الفرنسية، فالأغراب من الأكبر سناً بشكل دال يخاطَبون باستخدام الصيغة V دون مواربة. وبالمثل، فإن الفروق تعد ذات دلالة إحصائية بالنسبة لمتغير العمر ($p < 0.005$)، وبالنسبة لخيارات المخاطبة بين الأغراب الأكبر سناً والأغراب من نفس السن ($p < 0.005$) وعند الغرباء من نفس السن والغرباء من الشباب ($p < 0.025$). إن الفرق المدهش، بين اللغتين يكمن في تزايد استخدام صيغة T مع المخاطبين من نفس السن أو الأصغر سناً (انظر الجدول رقم ٣,٤) مما يعزز الصورة التي تكونت لدينا بالفعل في أن صيغة T هي الأكثر شيوعاً في اللغة الألمانية.

الجدول رقم (٣,٤). اللغة الألمانية، مخاطبة الشخص الغريب بصيغة V* عند سؤاله عن الاتجاهات.

خيار المخاطبة مع	النسبة المئوية للمفحوصين المستخدمين للصيغة V
شخص غريب، أكبر سناً بشكل دال، ومن نفس الجنس	١٠٠
شخص غريب، أكبر سناً بشكل دال، ومن الجنس الآخر	١٠٠
شخص غريب من نفس الجنس	٥٩
شخص غريب من الجنس الآخر	٦١
شخص غريب، أصغر سناً من نفس الجنس	٤٢
شخص غريب، أصغر سناً، ومن الجنس الآخر	٤٢
المجموع (N)	(١٩٨)

* يشمل ذلك المشاركين الذين ذكروا أنهم يستخدمون الضمير T أو V أو الذين تجنبوا المخاطبة كلية.

إذا ما دققنا في فحص البيانات، فإننا نجد أن عمر المتحدث هو المتغير المحدد لارتفاع معدل استخدام صيغة T مع المخاطبين من نفس العمر ومع المخاطبين الأصغر سناً. فعلى سبيل المثال، يستخدم ٧٨٪ من المتحدثين البالغين ٣٠ عاماً فأصغر صيغة T

مع شخص من نفس العمر، بينما يستخدم ٢٢,٧٪ فقط من ذوي الفئة العمرية بين ٣١-٥٠ عاماً هذا النمط. ولم يستخدم أي من المشاركين البالغين ٥١ عاماً وأكثر صيغة T مع مخاطب من نفس العمر. وهكذا نجد أن عمر المتحدث له تأثير ملموس على اختيار صيغة T في البيانات الألمانية عنه في الفرنسية.

ويوضح سؤال المقابلة حول العمر في الألمانية أن العمر الذي يخاطب الشخص عنده بصيغة V يتراوح، عند أغلبية المتحدثين، بين ١٣-٣٠ عاماً، بمتوسط عمر يبلغ ١٨ عاماً. وكما هو الحال في اللغة الفرنسية، فهناك أبعاد ثلاث لعمر التحول في الألمانية: العمر الذي يبدأ عنده المعلمون في المدارس تقليدياً مخاطبة طلابهم باستخدام صيغة V، والسن القانوني والظاهر الذي تبدأ عنده مدارك الرجولة، والفترة التي ينظر فيها الشباب إلى أنفسهم وأقرانهم كشباب وبالتالي يميلون تلقائياً إلى تبادل استخدام صيغة T.

لم يتمكن ٤٤ من المشاركين من تحديد عمر معين يبدأ عنده التحول، فقد ذكر ٣٤ منهم أن الأمر يكون "على حسب الحال". ويوضح الاقتباس التالي الأسباب الكامنة وراء الصعوبات التي يلاقيها بعض المشاركين في تحديد سن واضح يبدأون عنده مخاطبة الآخر بصيغة V وهم في ذلك يتطابقون مع المشاركين من العينة الفرنسية:

[عندما يتولد لديك انطباع تقريبي بأن شخصاً ما قد شب عن الطوق، يصعب ربط ذلك بعمر محدد، فالأمر يعتمد حينئذ أيضاً على الموقف.] (لايبتسيج، الاستبانة ٢، عالمة نفس، ٣٠ عاماً).

[في معظم الأحوال لا تعرف سن من تتحدث إليه. وأعتقد أن الأمر يتغير منذ اللحظة التي تعرف فيها أن من تحدثه قد صار شاباً، ولكن يعد هذا الأمر أيضاً مسألة فردية. ولا أعتقد أن هناك صيغة ثابتة لهذا الأمر.] (مانهايم، الاستبانة ٤، طالب، ٢٦ عاماً).

يذكر آخرون أيضاً أهمية السياق في تحديد مدى تأثير عامل العمر عند اختيار ألفاظ المخاطبة، كما يتضح من الاقتباس التالي:

[عندما يتولد لدي الانطباع بأن من أخاطبه شخص ناضج أو عندما أقابل شخصاً في سياق يعمل فيه بشكل مستقل، إذا جاز لنا أن نقول ذلك، حينها أخاطبه بـSie. وعندما يبيعني شخص شيئاً ما في محل، حتى وإن كان صبياً يبلغ من العمر ١٥ عاماً أو قريب من ذلك، فإن هذا الشخص يكون شريكي في صفقة تجارية لذا أقوم بمخاطبته أيضاً بـSie.] (مانهايم، الاستبانة ١١، مدير، ٦١ عاماً).

(٣,٤,٣) السويدية Swedish

في اللغة السويدية، حيث يعد T هو ضمير المخاطبة الافتراضي، يتوقع ألا يلعب عامل العمر أي دور ذي مغزى في تحديد اختيار الضمير. غير أنه كما يبدو من بيانات مجموعة الدراسة الأولى في جوتنبرج وفاسا، يظهر لنا أن اختيار ضمير المخاطبة المناسب مع شخص غير مألوف أكبر سناً بشكل دال تعد مسألة شائكة:

[من الصعب أن نخاطب شخصاً في الثمانينيات من عمره بـdu.] (جوتنبرج، مجموعة الدراسة ١، ٥٢ عاماً).

[في هذه الأيام، يود بعض كبار السن أن لو كانوا شباباً، لذا فمنهم من يشعر بالضيق إذا خاطبته بـ ni، ومن ثم، فإن الأمر ليس حاسماً إلى هذه الدرجة.] (فاسا، مجموعة الدراسة ١، أخصائية اجتماعية، ٥٩ عاماً).

وبالمثل، تشير بيانات الاستبانة المتوفرة لدينا أيضاً إلى العمر كمتغير دال في خيارات ضمير المخاطبة. وعندما سئل المشاركون عن كيفية مخاطبة الغريب، اختار

عدد لا بأس به منهم المخاطبة بصيغة V عند مخاطبة الغريب الأكبر سناً بشكل دال (انظر الجدول رقم ٣,٥). وتعد هذه النتيجة دالة إحصائياً بالنسبة للعمر بصفة عامة ($p < 0.005$)، وفوق ذلك هناك فرق دال إحصائياً بين خيارات مخاطبة الغرباء الأكبر سناً والغرباء من نفس السن ($p < 0.005$).

الجدول رقم (٣,٥). السويدية: مخاطبة الشخص الغريب بصيغة V* عند سؤاله عن الاتجاهات.

خيار المخاطبة مع	النسبة المئوية للمفحوصين المستخدمين لصيغة V
شخص غريب، أكبر سناً بشكل دال، من نفس الجنس	٥٣
شخص غريب، أكبر سناً بشكل دال، من الجنس الآخر	٥٨
شخص غريب من نفس السن ونفس الجنس	٤
شخص غريب من نفس السن، ومن الجنس الآخر	٣
شخص غريب، أصغر سناً من نفس الجنس	٢
شخص غريب، أصغر سناً، من الجنس الآخر	٢
المجموع (N)	(١٤٤)

* تشمل المشاركين الذين أخبروا عن استخدام T أو V أو تجنبوا استخدام المخاطبة كلية.

وكما تظهر البيانات الفرنسية والألمانية، فإن العمر يعد متغيراً هاماً في خيارات المخاطبة، غير أن تأثير ذلك في السويدية يتضح بصورة أبرز وأكثر استقلالية. وكما يوضح الجدول رقم (٣,٥)، فإن أكثر من ٥٠٪ من المشاركين يقولون إنه يمكنهم مخاطبة الأكبر سناً بشكل دال باستخدام صيغة V، بينما ذكر أقل من ٥٪ أنهم يستخدمون صيغة V مع المخاطبين من أقرانهم من نفس السن أو الأصغر سناً. وتوضح بعض التعليقات التي أدلى بها المشاركون أن استخدام صيغة V يعد قاصراً على الطاعنين في السن:

[يستخدم الضمير du تلقائياً في المخاطبة إلا إذا كان المخاطَب شخصاً يحتضر ويبلغ من العمر ٩٨ عاماً.] (جوتنبرج، الاستبانة ٤، صحفي، ٣٢ عاماً).

تشير الإجابات حول سؤال العمر في المقابلة إلى ثلاثة اتجاهات هامة. أولاً، يرى حوالي ثلث المشاركين أنه من المستحيل تحديد عمر معين يبدأ عنده قبول استخدام صيغة ٧ (١٤٤/٤٨، بنسبة ٣٣٪). ثانياً، يرى العديد من المشاركين (١٤٤/٢٩، بنسبة٢٠٪) أن هناك متغيرات أخرى أكثر أهمية من العمر. ثالثاً، بالنسبة لأفراد التجربة الذين يضعون حداً سنياً لبدء استخدام صيغة ٧ (٤٩ مشاركاً، يمثلون ٣٤٪)، هناك اختلافات جوهرية في تحديد هذه السن، وهي اختلافات تتراوح في مداها بين أواخر سن المراهقة إلى سن ١٠٠ عام. فاختار معظم الأفراد (٢٣) المرحلة العمرية من ٧٠-٨٠ عاماً لبدء استخدام صيغة ٧، بينما اختار ١٣ مشاركاً سن ٦٠-٦٥، وهناك ١٤ مشاركاً لم يختاروا سوى "شخص أكبر سناً" دون تحديد عمر معين. وهناك اتجاه آخر لاحظناه بالفعل في البيانات الفرنسية، ألا وهو أن العديد من المشاركين يرون أن المخاطبة تعتمد على عوامل أخرى، مثل الموقف، أو الانطباع الذي يكونه المتكلم تجاه المخاطب:

[إن الأمر صعب. ماذا لو كان هناك شخص أكبر سناً من ذلك بكثير. إن الأمر يعتمد أيضاً على طبيعة الشخص الذي تتعامل معه. إنني أستخدم الضمير du مع شخص لين العريكة يبلغ التسعين عاماً يخاطبني بـdu ويحييني بالعامية tjohoj "كيف الأحوال؟"، في حين أستخدم ni مع الشخص الذي تتوقع منه أن يُخاطَب بصورة مختلفة. إن الأمر يعتمد على إذا ما كنت تعرف الشخص جيداً أم أنه غريب عنك، إن الأمر يختلف باختلاف الموقف.] (جوتنبرج، الاستبانة ٤، معلمة، ٣٠ عاماً).

عند المشاركين من الناطقين بالسويدية الذين يضعون حداً عمرياً يبدأ عنده استخدام صيغة V، يبلغ متوسط هذا العمر ٦٧,٥ عاماً. ويعد هذا عمراً مرتفعاً إذا ما قارنا ذلك باللغات الأخرى. إنه لمن المثير أيضاً ملاحظة أن احتمالية مخاطبة شخص بصيغة V (والتي يمثلها الضمير ni) تتوزع توزيعاً متساوياً عبر أعمار أفراد الدراسة وتشمل الأصغر سناً (١٨ عاماً) والأكبر سناً (٨٣ عاماً)[٣]. إنه لمن المدهش كذلك وجود هذا العدد من الصور الذهنية المركبة للطاعنين في السن الذين يستحقون أن يُخاطَبوا بصيغة V. فطبقاً لما ذكره كاتب شاب تحدثنا إليه، فإن عامل "مِنسأة الكِبَر" walking-stick factor يعرب عن نفسه اليوم في السويد. ويذكر الكاتب الشاب أنه قد تخاطب مع أولياء أمره patrons بـdu غير أنه يتردد في استخدام du إذا كان هؤلاء من كبار السن والضعفاء. ولعل هذا الأمر يفسر لنا لماذا ينظر بعض كبار السن إلى الضمير ni على أنه علامة إقصاء exclusion عن التيار العام في المجتمع mainstreamness.

تتضح أهمية العمر من خلال الإجابات على السؤال المتعلق بكيفية مخاطبة رجال الشرطة من ذوي الأعمار المختلفة. وهنا نرى مرة أخرى أن النتائج كانت دالة إحصائياً بالنسبة لمتغير العمر بصفة عامة ($p < 0.005$) وبين الفروقات في خيارات مخاطبة ضباط الشرطة من نفس السن أو أصغر ($p < 0.025$). إذا ما قارنا البيانات المتعلقة باستخدام صيغة V مع الغرباء (الجدول رقم ٣,٥) بالبيانات المتعلقة باستخدام تلك الصيغ مع ضباط الشرطة (الجدول رقم ٣,٦)، تظهر لنا بعض الأنماط الفارقة.

---

(٣) يتناقض ذلك مع نتائج مجموعة الدراسة الأولى في جوتنبرج حيث ذكر المشاركون الأكبر سناً أنهم لم يستعملوا صيغة V بأنفسهم وكان واضحاً أنهم ضد استخدام تلك الصيغة وقد أبدوا آراءهم حول الإيحاءات السلبية المرتبطة تقليدياً باستخدام ضمير V في السويد (لوصف أدق، راجع (Clyne *et al.* 2006: 298-302)).

الجدول رقم (٣,٦). اللغة السويدية: مخاطبة ضباط الشرطة بصيغة V*.

خيار المخاطبة مع	النسبة المئوية للمشاركين المستخدمين لصيغة V
ضابط شرطة، أكبر سناً بشكل دال، من نفس الجنس	٣٧
ضابط شرطة، أكبر سناً بشكل دال، من الجنس الآخر	٣٨
ضابط شرطة من نفس السن و نفس الجنس	١٥
ضابط شرطة من نفس السن، ومن الجنس الآخر	١٥
ضابط شرطة، أصغر سناً من نفس الجنس	١١
ضابط شرطة، أصغر سناً، من الجنس الآخر	١١
المجموع (N)	(١٤٤)

* يشمل المشاركين الذين يقولون إنهم يستخدمون T أو V أو يتجنبون المخاطبة كلية.

فضابط الشرطة يخاطب بمزيد من صيغ V مقارنة بالغرباء من نفس السن أو أصغر. وهذا يوضح أن السلطة المخولة لوظيفة ضابط الشرطة تلغي تلقائية المخاطبة بصيغة T التي يستخدمها بعض الناس في السويدية (ما بين ١١-١٥٪).

غير أن ضابط الشرطة، الأكبر سناً بشكل دال، لا ينال سوى معدل أقل من صيغ V مقارنة بشخص غريب أكبر سناً بشكل دال[٤]. ويمكن ربط هذا الخروج عن القاعدة بحد متوسط العمر لبدء المخاطبة بـV في المخاطبة والذي يقف عند ٦٧,٥ عاماً. ربما يمكن تفسير ذلك على أن أفراد الدراسة ينظرون إلى ضابط الشرطة كبير السن كما لو كان لا يزال في الخدمة، ونظراً لأن سن التقاعد في فنلندا والسويد يبلغ حوالي ٦٥ عاماً، فهذا يضع ضابط شرطة الأكبر سناً بشكل دال في شريحة عمرية يجد معها عدد كبير من المستجيبين أن مخاطبته بصيغة T هي الخيار الطبيعي. أما فيما يتعلق بالغرباء من كبار السن، وهي الحالة

(٤) هناك فروق واضحة بين موقعي الدراسة السويديين فيما يتعلق باستخدام صيغة V مع ضابط الشرطة، وهي مسألة سنعود لتناولها في الفصل الخامس.

التي لوحظ فيها ارتفاع معدل أعلى استخدام صيغة V، فيمكن تفسير ذلك على أن المشاركين المستخدمين لصيغة V في المخاطبة ربما يكونون قد استحضروا صورة شخص طاعن في السن، وبالتالي وجدوا من اللائق مخاطبته بصيغة V.

(٣,٤,٤) الإنجليزية English

في الفرنسية والألمانية والسويدية، يعد العمر متغيراً أساسياً في تحديد اختيار صيغ المخاطبة المناسبة، لا سيما فيما يتعلق باختيار ضمير المخاطبة. ودارت المناقشات في تلك اللغات الثلاث، حول الاختلاف في استخدام الضمير، بينما دارت المناقشات في الإنجليزية داخل مجموعة الدراسة حول أشكال المخاطبة الاسمية، ومع اختلاف طبيعة المناقشات نجد أن أشكال المخاطبة الاسمية في الإنجليزية تتشابه مع اللغات الثلاث في مسألة وضع الذات في مواجهة المتخاطب الآخر. كل ما في الأمر هو أنه في اللغة الإنجليزية، مثلاً، يكون الخيار بين أشكال مخاطبية مثل Mrs Jones "السيدة جونز" أو مخاطبتها باسمها دون ألقاب Irene "أيرين"، بدلاً من أن يكون الخيار بين صيغتي V و T. ومن المعروف أن العمر فئة اجتماعية بارزة، ومن الواضح أن الأفراد في مجموعة الدراسة الإنجليزية ينظرون إلى عامل العمر كمتغير هام في علاقاتهم الاجتماعية أيضاً، ولعل من أحد الأمثلة على ذلك، تلك المناقشة التي جرت في مجموعة الدراسة بلندن في عيادة أحد الأطباء حول استخدام الاسم الأول ولفظ التبجيل + الاسم الأخير. فتتعلق إحدى المرضات في أوائل الثلاثينيات من عمرها حول مخاطبتها للمرضى من صغار السن بالاسم الأول ومخاطبتها للمرضى في الخمسينيات فما أعلى بلفظ التبجيل + الاسم الأخير. وتتمثل المنطقة الرمادية لتلك المرضة في المجموعة العمرية ذات السن المتوسط، حيث ينبغي عليها أن تسأل المرضى مباشرة عن الطريقة التي يفضلون أن تخاطبهم بها:

أعتقد أن مقتضيات الموقف تحدد ذلك؛ أقصد أنه أثناء ممارستي لعملي، إذا كان لدي مرضى من الشباب فإنني أفترض أنه ينبغي مخاطبتهم بالاسم الأول، وربما أخاطبهم بالاسم الأول تلقائياً دون استئذان. فإن كان هؤلاء المرضى يكبرونني قليلاً في العمر، ولم أكن قادرة على تحديد هوية الشخص الذي أتحدث إليه، فإنني أسأله عن الطريقة التي يود أن يخاطب بها. وإذا كان الشخص أسن مني بشكل واضح، أي في أواخر الخمسينيات أو الستينيات، فقد أستخدم الألقاب مثل Mr "السيد" أو Mrs "السيدة" رغبة في إظهار الاحترام. وهكذا تسير الأمور. (لندن، مجموعة الدراسة، ممرضة، ٣٣ عاماً).

الأمر الذي يشير إليه هذا المثال، في هذه الحالة الخاصة، هو أن هناك عمراً محدداً ينطلق عنده استخدام لفظ التبجيل + الاسم الأخير، وهو أواخر الخمسينيات. وفي هذا الشأن، تقترب اللغة الإنجليزية من السويدية أكثر مما تقترب من الفرنسية أو الألمانية. وفضلاً عن ذلك، بالرغم من أن عامل العمر يعد عاملاً له أهميته، يشعر المشارك بالحاجة إلى إبراز متغيرات أخرى، وهو ما تعبر عنه العبارة "على حسب الأحوال" 'it depends'.

يعلق مشارك آخر على هذا الأسلوب المخاطبي من منظور المريض، فيبدي ملاحظاته حول التغيير الذي طرأ على الطريقة التي كان يخاطب بها، وهو التحول من المخاطبة بصيغة الاسم الأول + الاسم الأخير إلى صيغة لفظ التبجيل + الاسم الأخير:

إنني أعود بذاكرتي عندما كنت صغير السن، في عيادة الطبيب، حينما كان يحين دوري لرؤية الطبيبة، فكانت تناديني Charles Livingstone "تشارلز ليفينجستون"، ولكنها الآن تناديني Mr Livingstone "السيد ليفينجستون". ولا أعرف متى حدث هذا التغيير. لا أتذكر إنها نفس عيادة الطبيب. (لندن، مجموعة الدراسة، سمسار، ٣٤ عاماً).

كما كان الحال في البيانات الفرنسية، كان التحول في الإنجليزية من استخدام Miss "آنسة" إلى Mrs "السيدة" يعكس التغيرات الجسمانية المرتبطة بالتقدم في العمر:

(١) (...) إذا ما أخطأ شخص وخاطبك باستخدام Mrs في حين أنك Miss، أو العكس، عن طريق الخطأ، فكيف يكون مدى امتعاضك؟ هل يضيرك هذا الأمر على الإطلاق؟ هل تكونين ممتعضة؟

(٢) لا أكون ممتعضة، إنك تفكر في أمك في الحال، هذا هو الأمر. (ضحك)

(٣) إنك غالباً ما ينتابك التفكير "هل أنا بالفعل أبدو كبيرة السن؟".

(لندن، مجموعة الدراسة؛ (١) طالب، ٢٣ عاماً؛ (٢) مديرة مالية، ٣٩ عاماً؛ (٣) مشاركة مجهولة).

كان اختيار ألفاظ التبجيل في مخاطبة امرأة ما (بالألفاظ مثل Miss أو Mrs أو Ms) موضوعاً مثيراً للجدل، لا سيما فيما يتعلق بموضوع تخطيط اللغة النسائية feminist language planning واستخدام لفظ Ms "السيدة، سواء متزوجة أو غير متزوجة" كصيغة محايدة (راجع على سبيل المثال (Pauwels 1998)؛ و (Winter and Pauwels 2007)). ولقد تمت مناقشة هذا الأمر في كافة مجموعات الدراسة الخاصة باللغة الإنجليزية. ورغم محدودية ما توفر لنا من بيانات وهو ما يجعلنا نبتعد عن المناقشة التفصيلية لاستخدام Ms في الوقت الحاضر، إلا أن تلك البيانات تدعم رؤيتنا الحالية في أن اللفظ Ms لا يستخدم على نطاق واسع في الإنجليزية البريطانية (راجع الفقرة ٢,٢,١). في المحادثة التالية من ترالي، تقرر إحدى المشاركات أن بعض النساء لا يرغبن في أن يخاطبن بـMrs ولكنهن يفضلن Ms. وتميل مشاركتان إلى موافقة هذا الرأي إلا أن كلاً منهما تعتبر أن استخدام Ms يعد لائقاً، ولكن على مستوى الكتابة فحسب:

(١) أعتقد أن بعض النساء لا يرغبن في أن يخاطبن بـMrs لذا يفضلن Ms.
(٢) إنني دائماً ما أكتب Ms على خطاباتي ولكن لا أحب أن يخاطبني أحد بـMs.
(٣) وأنا أيضاً عندما يطلب مني أن أستخدم لقباً في نموذج ما أو شيء من هذا القبيل، لا أحب استخدام Miss لذا أستخدم Ms.

(ترالي، مجموعة الدراسة؛ (١) أمينة مكتبة، ٣٥ عاماً؛ (٢) طالبة، ٢٥ عاماً؛ (٣) طالبة، ١٩ عاماً).

غير أن هناك مشاركة أخرى تنظر إلى Ms نظرة سلبية وتعتبرها من الألفاظ التي قد عفى عليها الزمن، سواءً كتابة أو شفاهة:

إنني أكره أن أخاطب بـMs أو تكتب أمام اسمي هذه الكلمة. وأعتقد أن تلك الكلمة قد عفى عليها الزمن، فهي من بقايا حقبة تحرير المرأة وما يتعلق بهذه القضية. إننا نعيش الآن في عالم مختلف. (ترالي، مجموعة الدراسة، معلمة، ٣٠ عاماً).

في مجموعة الدراسة بلندن، قالت إحدى الطالبات إنها لا تستخدم Ms للإشارة إلى نفسها في نموذج كتابي، على سبيل المثال، بينما تصر فتاة أخرى على القول:

لا أرى لماذا ينبغي علي أن أعلن عن حالتي العائلية عندما لا يتوقع ذلك من الرجال. (لندن، مجموعة الدراسة، مترجمة لغة الإشارة، ٣٥ عاماً).

تتفق مع هذا الرأي العديد من السيدات في مجموعة الدراسة في نيوكاسل، وترى بعضهن أن هذا اللفظ ينطوي على نوع من الوصمة الاجتماعية:

أظن أن معظم الناس يعتقدون أن لفظ Ms يشير إلى المطلقة رغم أنه لا يقصد به ذلك. (نيو كاسل، مجموعة الدراسة، طالبة، ٢٧ عاماً).

(٣,٤,٥) الخلاصة Summary

توضح رؤيتنا العامة للغات الأربع أنه في الفرنسية والألمانية يعتبر ما يمكن تسميته بـ"النضج الرجولي" mature adulthood هو المحك في التحول إلى مخاطبة شخص ما بصيغة V، وتتشابه اللغتان تقريباً في المدى العمري لبداية هذا النضج (يتراوح بين ١٠-٤٠ عاماً في الفرنسية؛ وبين ١٣-٣٠ عاماً في الألمانية). وربما يكون للمفحوصين تفسيرات مختلفة للسؤال فقد يركز البعض على المراحل الحياتية، أو على سن الرشد بالمعنى القانوني، أو على نهاية سن الشباب، أي نهاية السن الذي يتبادل عنده الشباب استخدام صيغة T:

[لا أحد يريد أن يشعر أن السن يتقدم به، لذا لا يتقبل، حتى من هم في الثلاثينات من أعمارهم، فكرة أنهم قد تقدموا في السن وأصبحوا أكثر إثارة للملل.] (مانهايم، الاستبانة ١٠، باحث، ٢٩ عاماً).

يتناقض هذا مع السويدية، وإلى حد أقل مع الإنجليزية، حيث تعتبر مرحلة الإحالة إلى التقاعد أو ما بعد ذلك قليلاً، وهي مرحلة هامة في حياة الإنسان، هي الفترة العمرية التي يحدث عندها تحول واضح في ألفاظ المخاطبة. ففي البيانات السويدية يعد سن ٦٧,٥ عاماً هو متوسط العمر الذي يبدأ عنده مخاطبة الشخص بصيغة V، ووفق البيانات الإنجليزية هناك مؤشرات من بعض المشاركين بأن لفظ "الأكبر سناً" يمكن أن يترجم على أنه يشير إلى نهاية الخمسينيات أو الستينيات.

(٣,٥) المتغيرات الاجتماعية: المكانة الاجتماعية
Social Variables: Status

هناك جانب آخر من جوانب التعبير عن التفاوت الاجتماعي من خلال أساليب المخاطبة يرتبط بالفوارق الهرمية الاجتماعية. فوفق مبادئ علم اللغة

الاجتماعي، يصنف المشاركون في الدراسة تقليدياً وفق المكانة الاجتماعية الاقتصادية socio-economic status والتي تم وضع تعريف لها وفق مقاييس مختلفة أو مزيج من تلك المقاييس، بما في ذلك عوامل المهنة ومستوى التعليم (انظر، على سبيل المثال، (Labov 1972)، و (Trudgill 1974)). في عينة هذه الدراسة، ينتمي أغلب المشاركين إلى الفئات المهنية ذات التعليم العالي. مثلاً، وإذا أخذنا بمقياس التعليم نجد أن ٧٨٪ من المشاركين الناطقين بالسويدية، و ٦٧٪ من المشاركين الناطقين بالفرنسية، و ٧٠٪ من الناطقين بالألمانية قد أجروا دراسات فوق مستوى التعليم الثانوي. ويعكس هذا الأمر توجهنا عند استخدام المقابلات عبر الشبكة، حيث قمنا بتوظيف طلاب الدراسات العليا كمجمعين للبيانات في كل أماكن الدراسة والذين قاموا بدورهم بانتقاء المفحوصين الأساسيين من شبكاتهم. ورغم أن العينات المنتقاة من الأفراد لا تعتبر بالضرورة تعبيراً دقيقاً عن الصورة التعليمية والمهنية داخل المجتمع بأكمله، إلا أنه تم توزيع الفئات توزيعاً متسقاً في مختلف مجموعات البيانات. وفيما يتعلق بالبيانات الإنجليزية، فإن أغلب المشاركين ينتمون إلى خلفيات مهنية ذات تعليم عال.

فيما يتعلق بالبيانات الفرنسية والألمانية والإنجليزية، تركز المناقشات المتعلقة بالمكانة الاجتماعية على التسلسل الهرمي للوظائف في بيئة العمل workplace hierarchies، بينما لا يوجد في البيانات السويدية سوى القليل من المناقشات حول أساليب المخاطبة المستخدمة في بيئة العمل. يناقش الفصل الرابع بيئة العمل بمزيد من التفصيل، بصفة عامة، ويتناول الشبكات والنطاقات، ويركز على كيفية وضع مؤشر للمكانة الاجتماعية أو وضع تكويد لها من خلال ممارسات المخاطبة. ففي اللغة الفرنسية، أو الألمانية، على سبيل المثال، حيث تستخدم صيغ T و V في الوقت الحاضر، يمكن التعبير عن المكانة الاجتماعية من خلال اختيار ضمير محدد، أما في اللغة السويدية، حيث تعد صيغة T هي الصيغة شبه العامة، فإن علاقات المكانة الاجتماعية نادراً ما ترتبط بضمائر المخاطبة.

لأغراض المقارنة، نبدأ في كل لغة من اللغات محل الدراسة بالبيانات الواردة في الاستبانات والتي تعطي فكرة عامة حول استخدام الضمير في مخاطبة رؤساء العمل والزملاء، ثم نناقش، بعد ذلك، في كل لغة على حدة، أسئلة المقابلات والتي أثارت وبشكل مباشر الأمور المتصلة بالمكانة الاجتماعية. ففي اللغة الفرنسية أثار سؤال المقابلة التالي تعليقات تتعلق بالمكانة الاجتماعية: "ما هو شعورك تجاه الشركات التي تستخدم صيغة T في المخاطبة، مثل شركة أيكيا IKEA على سبيل المثال؟". أما في المقابلات في اللغة السويدية، فيبرز موضوع المكانة الاجتماعية عند الإجابة على الأسئلة التالية: (أ) "هل تحب أن تخاطب بصورة أكثر رسمية أم أقل رسمية؟"، و (ب) "في الإذاعة والتلفاز، لا سيما في البرامج الحوارية، تستخدم صيغة T أحياناً من قبل المذيع دون النظر إلى الشخص الذي تجرى معه المقابلة. هل تعتقد أن مثل هذا الأسلوب في المخاطبة يعبر عن سوء أدب أم أنه أسلوب لائق ومهذب؟ لماذا؟".

(٣,٥,١) الفرنسية French

تتضح طبيعة التسلسل الهرمي لبيئة العمل في الفرنسية من خلال إجابات المشاركين على الأسئلة المتعلقة بكيفية مخاطبتهم لزملائهم ورؤسائهم في العمل كما يظهر من خلال الجدول رقم (٣,٧). إن نصف المشاركين تقريباً (٤٩٪) يقولون إنهم يتخاطبون بصيغة V بشكل تبادلي مع رؤسائهم في العمل، بينما يقول أقل من الربع (٢٤٪) إنهم يتخاطبون معهم بصيغة T. وتبلغ نسبة المفحوصين الذين ذكروا أنهم يستخدمون صيغة V سواء بشكل تبادلي أو من جانب واحد ٧١٪. وعلى النقيض من ذلك، يذكر ٨٤٪ من أفراد الدراسة أنهم يستخدمون صيغة T بشكل تبادلي مع زملائهم في العمل، ولا يذكر سوى ٢٪ من المشاركين أنهم يتخاطبون بصيغة V بشكل تبادلي.

الجدول رقم (٣,٧). الفرنسية: استخدام ضمير المخاطبة في العمل (المتكلم–المُخاطَب).

	معدل تبادل صيغ T–T (٪)	معدل تبادل صيغ T/V–T/V (٪)	معدل تبادل صيغ V–T (٪)	معدل تبادل صيغ V–T/V (٪)	معدل تبادل صيغ V–V (٪)
بين رؤساء العمل	٢٤	٦	١٦	٦	٤٩
بين الزملاء	٨٤	١٣	٠	٠	٣
المجموع = ٦٨					

نلاحظ هنا أيضاً أن ١٦٪ من المشاركين يقولون إنهم يتخاطبون بصيغ لا تبادلية، إذ يخاطبون رؤساءهم بصيغة V بينما يخاطبهم رؤساؤهم بصيغة T. ويمتد الاستخدام اللاتبادلي في الفرنسية إلى ما وراء الضمائر ليشمل ألفاظ التبجيل واستخدام الاسم الأول. طُلب من المشاركين توضيح ما إذا كانوا قد استخدموا الاسم الأول، أم لفظ التبجيل، أم لفظ التبجيل + الاسم الأخير مع رؤسائهم في العمل أو زملائهم. وهنا نجد أنه حتى في الحالات التي قيل إن صيغة V قد استخدمت فيها بشكل تبادلي، فإن ثلث المشاركين (٣٣/١١) قد أوضحوا أن التعبير عن المكانة الهرمية يعبر عنه بمزيج من صيغة V + لفظ التبجيل، أو لفظ التبجيل + اللقب مع رؤسائهم الذين يخاطبونهم بصيغة V + الاسم الأول في المقابل (انظر الفصل الرابع لمزيد من المناقشة).

استقرت فكرة التسلسل الوظيفي الهرمي بشدة في مفاهيم المشاركين حول بيئة العمل، كما يتضح من خلال إجاباتهم عن السؤال المتعلق بآرائهم في الشركات التي تستخدم صيغة T (انظر الجدول رقم ٣,٨). في الإطار الفرنسي، أدرك المشاركون أن استخدام صيغة T يفرض على الموظفين للتخاطب فيما بينهم، في داخل الشركة، وليس للتخاطب بين الموظفين والعملاء.

الجدول رقم (٣,٨). الفرنسية: رأي الشركات مثل شركة أيكيا IKEA التي تستخدم الضمير tu في المخاطبة.

الرأي	عدد أفراد الدراسة	النسبة المئوية ٪
إيجابي	٢٤	٣٣,٨
سلبي	٣٢	٤٥,١
رأي آخر / لا رأي	١٥	٢١,١
المجموع (٧١)		

ويبدي نصف المشاركين تقريباً (٤٥٪) رأياً سلبياً حول فرض المخاطبة بصيغة T في كافة السياقات، إذ إنهم يعتبرون أن التسلسل الوظيفي الهرمي في بيئة العمل لا يمكن أن يزول بمجرد تغيير ظاهري في شكل ضمير المخاطبة:

[يبدو الأمر كما لو كانت اللغة تستخدم كي تمحو أثر التمايزات الاجتماعية، وهي تمايزات نراها على أرض الواقع في نواح أخرى.[...]، فلكل فرد مكانته ويمكن فهم الصراعات في ضوء هذا الأمر. فعندما تكون أكثر اندماجاً مما ينبغي في موقف ما، وهذا إحدى مضار استخدام tu، يبدو لي حينئذ أن الأمر يتعدى الحدود اللائقة، بل يمكن أن يكون أكثر ضرراً للشخص الأقل مكانة في تسلسل الهرم الوظيفي.] (باريس، الاستبانة ١، معلمة لغة فرنسية، ٣١ عاماً).

ويرى من يبدون رأياً سلبياً أيضاً أن فرض المخاطبة بـtu قسراً ينطوي على نفاق كبير، إذ إن ذات الصراعات تكون قائمة ولكن خلف واجهة المساواة والتودد.

[أعتقد أن الأمر ينطوي على نفاق كبير. لأن الأمر يبدو كما لو كنا نعرف بعضنا البعض، في حين أننا لا نعرف بعضنا معرفة جيدة على الإطلاق. إنها مسألة مظهرية، مناخ من الثقة، من التودد [...]. غير أنه في واقع الأمر، تكمن خلف هذه الواجهة نفس الصراعات بين الأشخاص.] (باريس، الاستبانة ١١، طالب، ٢٣ عاماً).

وترى الأقلية التي تبدي رأياً إيجابياً حول فرض استخدام المخاطبة بـT (٣٤٪)، أنهم يتخذون موقفهم هذا لأن هذا الأسلوب المخاطبي يخلق بيئة أكثر مساواة، بيئة عامة منفتحة تتسع للجميع:

[هناك المزيد من الود، بين الجميع، من أعلى الرتب إلى أدناها. فعلى الأقل، يتخاطب الجميع معاً بـtu، وبهذا تنتفي الطبقية، فالكل سواسية، في الواقع. إنه أكثر إتصافاً.] (باريس، الاستبانة ٢، مشغلة تليفونات، ٢٨ عاماً).

أما فيما يتعلق بالألقاب وألفاظ التبجيل، علقت إحدى المشاركات على التغيرات التي لاحظتها في بيئة عملها، وهو المصرف الذي ظلت تعمل به طيلة ٣٠ عاماً (باريس، الاستبانة ٥، سكرتيرة، ٤٩ عاماً) قائلة إن استخدام Monsieur "مسيو" و Madame "مدام" كان شائعاً عند مخاطبة الرؤساء في العمل حينما بدأت عملها في المصرف، غير أنه في هذه الأيام تعد المخاطبة بالاسم الأول أكثر شيوعاً، حتى حينما يستخدم الضمير المعبر عن V. أبدت المشاركة أيضاً بعض التعليقات حول اختفاء استخدام صيغة لفظ التبجيل + اللقب مثل صيغة Monsieur le directeur "السيد المدير"، في العلاقات المباشرة القائمة على التسلسل الوظيفي الهرمي.

يذكر المشاركون أيضاً استخدام المخاطبة للإشارة إلى تفاوت المكانة الاجتماعية، ويحدث هذا بصفة أساسية عند مخاطبة الشرطة، وقد ذكر المشاركون ذلك من خلال تجاربهم الخاصة أو من خلال الروايات المنقولة لهم:

[يمكن أن تستخدم tu بطريقة تدل على الازدراء، كما يفعل البوليس مع ذوي الأصول العربية.] (باريس، الاستبانة ٣، مهندس حاسب، ٤٣ عاماً).

يؤكد الاقتباس التالي الإيحاء العنصري لاستعمال صيغة T:

[إذا ما قابلت شاباً من شمال أفريقيا يبلغ من العمر ١٧ عاماً وكان يتحدث إلي فإنني أخاطبه بvous، لأنني إذا خاطبته بtu فسيعتقد أنني شرطي، وهذا يؤلمني، وثانياً سيعتقد [...] أنه يُنظَر إليه كمواطن من الدرجة الثانية.] (باريس، الاستبانة ٣، مؤرخ، ٦٩ عاماً).

(٣,٥,٢) الألمانية Germany

في بيئة العمل في الألمانية، غالباً ما تحدد مكانة الفرد في داخل المؤسسة أنماط الأساليب التي يُخاطَب بها. فوفق البيانات الواردة بالجدول رقم (٣,٩)، يخاطب ٦٠٪ من المشاركين رؤساءهم في العمل بصيغة V ويخاطِبهم رؤساؤهم بصيغة V أيضاً، وهو ما يتساوى تقريباً مع أعداد من يستخدمون صيغة T مع زملائهم في العمل من نفس المستوى (٦٧٪).

الجدول رقم (٣,٩). الألمانية: استخدام ضمائر المخاطبة في العمل (المتكلم–المخاطب).

	معدل تبادل صيغ T–T (٪)	معدل تبادل صيغ T/V–T/V (٪)	معدل تبادل صيغ V–T (٪)	معدل تبادل صيغ V–V (٪)
بين رؤساء العمل	٣٤	٦	٠,١	٦٠
بين الزملاء	٦٧	٢١	٠	١٣
المجموع = ١٩٨				

وهكذا نجد أن التسلسل الوظيفي الهرمي في بيئة العمل يلعب دوراً أساسياً في تحديد خيارات ضمير المخاطبة في الألمانية. وجدير بالملاحظة هنا أنه لا يوجد سوى بالكاد أي استخدام للضمير بطريقة لا تبادلية في الألمانية، وهذا يخالف النتائج التي سبق التوصل

إليها سالفاً في الفرنسية، غير أن عدد المشاركين الألمان الذين ذكروا أنهم يخاطبون زملاءهم في العمل بصيغة T يقل عددهم عن نظرائهم من المشاركين الناطقين بالفرنسية.

ووفقاً لملاحظات المشاركين فإن معدل استخدام الألقاب في مواقف الاتصال المباشرة في الألمانية يقل في الوقت الحالي عما كان عليه الأمر منذ أربعين عاماً وتعتبر هذه الألقاب رمزاً هاماً للدلالة على المكانة الاجتماعية. وكما سنرى في الفقرة (٥,٤,١)، فإن الألقاب أكثر شيوعاً في النمسا عنها في ألمانيا التي أصبح استخدام الألقاب فيها مثيراً للجدل. فلا تزال الألقاب في ألمانيا تستخدم في المخاطبة الرسمية، وفي الخطابات، وعلى أظرف الخطابات، وأحياناً في المراسلات الرسمية. وفي الوقت الحاضر، لم تعد الألقاب تنتقل إلى زوجة صاحب اللقب (مثل، Frau Pastor "السيدة حرم باستور"، أو Frau Professor "السيدة حرم الأستاذ").

وبصفة عامة، كان المشاركون الألمان يعتبرون من غير اللائق عدم تبادل نفس ضمائر المخاطبة بين الغرباء من الكبار، غير أنه وجد في بعض البيئات، مثل البيئة الجامعية استخدام محدود وغير تبادلي لضمائر المخاطبة (انظر الفصل الرابع). ففي حين نجد أن الضمير V هو الضمير الافتراضي في التعامل مع الغرباء والسلطات، نجد أن هناك استثناءات لتلك القاعدة. فيذكر العديد من المشاركين، وبصورة تدل على الاستهجان، أن المهاجرين غالباً ما يشعرون بالدونية إذا ما خوطبوا بصيغة T، كما يتضح من الاقتباس التالي من مجموعة الدراسة بفيينا:

[كانت الشرطة تخاطب صديقي البولندي بـ du بطريقة شبه تلقائية، وقد أصابني هذا الأمر بصدمة شديدة.] (فيينا، مجموعة الدراسة ١، طالبة، ٢٣عاماً).

يجب أن نوضح هنا أن مخاطبة المهاجرين بصيغة T لا تنطوي بالضرورة على عنصرية، إذ إن صيغة T يمكن أن تعبر عن التضامن، كما يتضح من المقابلات التي أجرتها مجلة

جماعة دعم طالبي اللجوء السياسي، وهي مجلة برو أسيل Pro Asyl: ("يلدز، أنت (du) عشت في ألمانيا لفترة ١٤ عاماً") (مجلة برو أسيل، ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٧م، ص ٢).

(٣,٥,٣) السويدية Swedish

في اللغة السويدية، واللغة الفنلندية وفي مجتمعات الشمال بصفة عامة، تعد المساواة من أولويات المجتمع. ويتضح ذلك من مقاومة المجتمع وبصورة نشطة لظهور أية فوارق في المكانة الاجتماعية، كما يتضح من الاقتباس التالي من مجموعة جوتنبرج الأولى:

[لا يرد على بالي على الإطلاق أن أخاطب رئيسي في العمل ب ni لمجرد أنه أعلى رتبة مني.] (جوتنبرج، مجموعة الدراسة ١، مدير في قسم حكومي، ٢٧ عاماً).

في بيانات الاستبانة السويدية هناك شبه اجماع على تبادل المخاطبة بين الزملاء والرؤساء بصيغة T، كما يوضح الجدول رقم (٣,١٠).

الجدول رقم (٣,١٠). السويدية: استخدام ضمير المخاطبة في العمل (المتكلم–المخاطب).

	معدل المخاطبة T–T (٪)	معدل المخاطبة V–T (٪)	معدل المخاطبة V–V (٪)	نسبة التجنب (٪)
بين الرؤساء	٩٠	٦	١	٣
بين الزملاء	٩٨	١	٠	١
المجموع = ١٤٠				

يكشف سؤال المقابلة الذي يطلب التعليق على عادة مذيعي الراديو والتلفاز في استخدام صيغة T مع الجميع عن بعض النتائج المثيرة حول المكانة[٥]. نظراً لأننا نعرف أن صيغة T هي ضمير المخاطبة السويدي الافتراضي، فليس من عجب أن نجد أن الأغلبية (١٤٤/٩١، ٦٣٪) يرون أن صيغة T تعد ملائمة للجميع. وفي الاقتباس التالي، يرى المشارك، بلا مراء، أنه من الخطأ التفرقة في معاملة الناس ووضعهم في مراتب مختلفة:

[لا أعرف إن كان ذلك من قبيل الأدب أم لا، غير أني أعتقد أنه من غير اللائق مخاطبة بعض الناس بـni، ومخاطبة آخرين بـdu لأن هذا الأمر ينطوي على وضع الناس في مراتب مختلفة.] (جوتنبرج، الاستبانة ١٠، صحفية، ٢٩ عاماً).

غير أن ثلث المشاركين (١٤١/٥١، ٣٥٪) يرون أن هذه الممارسة ليست لائقة في كل الأحوال. وهنا يستثني أغلبية المشاركين (٥١/٣٦) أناساً من ذوي المكانة العالية مثل ملك السويد والرئيس الفنلندي، وكبار السن (٣٦/١٥) من الاستخدام العام لصيغة T. ويتضح هذا الأمر لنا من خلال الاقتباس التالي:

[أعتقد أنه المناسب تماماً مخاطبة الجميع بـdu، ويستثنى من ذلك الرئيس أو رئيس الوزراء أو ذوو المكانة الرفيعة؛ ما خلا ذلك يمكن أن يخاطب بـdu بكل حرية.] (فاسا، الاستبانة ٤، طالب، ٢١ عاماً).

يمكن أن تكشف لنا رغبة شخص ما في أن يخاطب بصورة أكثر رسمية أو أقل رسمية عن مدى إدراكه للتسلسل الهرمي للمكانة الاجتماعية في المجتمع. فمن المفترض، أن تكشف نزعة الشخص إلى أن يخاطب بشكل أكثر رسمية عن رغبته في التمتع بمزيد من الاحترام

(٥) في الفرنسية والألمانية لم تكن هناك أية تعليقات حول المكانة عند طرح هذا السؤال.

والمكانة. ففي البيانات السويدية، تذكر الغالبية العظمى من المشاركين (١٤١/١٠٩، ٧٧,٣٪) أنهم راضون عن الطريقة التي يخاطبون بها، في حين يرغب عدد قليل من المشاركين أن يخاطبوا بصورة أقل رسمية (١٤٤/١٣، ٩,٢٪) أو أكثر رسمية (١٤٤/١٢، ٨,٥٪). أما أولئك الذين يرغبون أن يخاطبوا بصورة أكثر رسمية، فإن السبب عندهم يرجع أحياناً إلى الإحساس بالتميز ويعلو المكانة، كما يتضح من الاقتباس التالي:

[يعد هذا الأمر تعزيزاً لاحترام الذات؛ إن مخاطبتي بni في هذا العمر يعني أنني شخص مهم. إن ذلك يشبه لعبة الركض إلى الكرة في المدرسة الثانوية؛ تحس دائماً أن لك دوراً. لا يبدو الأمر طبيعياً، غير أنك تشعر بالفرحة إذا ما خوطبت بni <هل يعبر ni عن الأدب؟>. يمكن أن يستخدم du في كافة السياقات، فهو الضمير الأكثر حيادية والأقل شخصنة حتى ولو استخدم على نحو شخصي.] (جوتنبرج، الاستبانة ٩، مساعد معمل، ٢٠ عاماً).

هناك دليل، أيضاً، على أن المشاركين يرفضون ألفاظ التبجيل التي تعبر عن المكانة أو يقاومون استخدامها. يوضح المثال التالي السخرية التي يبديها أحد المشاركين إزاء استخدام لفظ التبجيل min herre "سيدي" في إحدى المقابلات الخدمية:

[خاطبني شخص ما في أوسترمالمشالين Östermalmshallen لسوق جديد للأغذية في أستوكهولم يرتاده المستهلكون رغبة في إظهار الوجاهة] كان يبيع الشوكولاته بـmin herre لأنني كنت على وشك شراء الشوكولاته. لقد كان هذا الأمر سخيفاً.] (جوتنبرج، الاستبانة ٨، مؤلف ومترجم، ٦١ عاماً).

يسوق بعض المشاركين أمثلة يعبرون من خلالها عن حساسيتهم تجاه الفوارق التي تقوم على اعتبارات المكانة. ففي مجتمع تكون فيه المخاطبة بصيغة T هي الأمر الطبيعي، يمكن التعبير عن التمايز في المكانة من خلال الاسم الأول:

[لقد عملت في أماكن عمل رسمية [محكمة قانونية]. وعلى الرغم من ريبتي من ملاءمة مخاطبة الرؤساء الأعلى بالاسم الأول، كنت دائماً أخاطبهم بـdu، غير أنني أرى أن المخاطبة بالاسم الأول تشعرك بعدم الراحة. <هل يمكن المخاطبة بالاسم الأخير بدلاً من ذلك؟> لا، إنني أنأى بنفسي عن استخدام الاسم الأخير.] (جوتنبرج، الاستبانة ٨، محقق، ٣٣ عاماً).

حينما سئلت المشاركة التالية إذا كان ممكناً مخاطبة شخص أكبر سناً بصيغة V، ردت قائلة:

[أخاطبهم بذلك إذا أحسست أنهم يودون أن يخاطبوا بهذه الطريقة [أي بصيغة V]، إذا بدا عليهم أنهم من ذوي المقامات الرفيعة.] (فاسا، الاستبانة ٦، مديرة مشروع، ٣٢ عاماً).

يشير الاقتباس السابق إلى مجموعة متغيرات اجتماعية متعددة: فقد سئل المشارك عن العمر غير أنه رد بالانتماء الطبقي، لكن الأمر الأكثر أهمية هنا، وهو ما سوف نناقشه في الفقرة (٣,٦)، هو مسألة استشعار رغبة المتخاطب في أن يخاطب بطريقة معينة.

(٣,٥,٤) اللغة الإنجليزية English

لا يوجد في اللغة الإنجليزية بدائل فيما يتعلق بضمائر المخاطبة، نظراً لأن لديها ضميراً وحيداً للمخاطبة، وهو الضمير you (U). ولا يعني هذا، بأي حال من الأحوال، أنه لا يمكن التعبير عن المكانة الاجتماعية من خلال ألفاظ المخاطبة الأخرى. فوفق البيانات الواردة من لندن، تثار فكرة الطبقية الاجتماعية في مناسبات عديدة، فيشير المشارك التالي بصورة مباشرة إلى الاختلاف الطبقي في استخدام لفظي المخاطبة Sir "السيد" و Madam "السيدة" اللذين يشبهان صيغ V:

إنني أذكر تجربتي مع Sir و Madam في كونها تقوم على الطبقية الاجتماعية class-based نظراً لأنني ترعرعت في بيئة الطبقة العمالية الكادحة؛ من حسن الحظ أنني أتحدث بصورة جيدة، فقد منحني ذلك فرصة العمل في قسم الاستقبال في أحد فنادق الخمس نجوم في وسط لندن عندما كان عمري ١٧ عاماً، وهي فرصة لم يكن يحلم بها أحد من زملاء الصف. ولكن ما يعنيني هو أنني انتهى بي المطاف إلى مخاطبة أناس بـSir و Madam لما اعتبرتهم أرفع مني طبقة وجاء ذلك على هواهم. لقد ظنوا أن ذلك أمر رائع. ظنوا أنني أكثر الناس أدباً، صاحب الأدب الرفيع! (لندن، مجموعة الدراسة، موظف دعم إسكان، ٢٨ عاماً).

يمكن التعبير عن المكانة من خلال استخدام لفظ التبجيل + الاسم الأخير:

<هل يمكن أن تذكر أي موقف يمكن تستخدم فيه صيغة Mr أو Miss + اسم العائلة؟ أو أي موقف يمكن فيه استخدام لفظ آخر بديلاً عن الاسم الأول للشخص؟ وماذا عن استخدام ذلك في المواقف الرسمية؟>. *إنني أعمل لصالح إحدى الهيئات المحلية وإذا تحدثت مع شخص من عامة الشعب في أشياء تتعلق باستفسارات أو شيء من هذا القبيل فمن الغالب أن تكون رسمياً حينما تقترب منهم لأنك تريد أن تقدم نفسك كمهني وتريد أن تتعامل معهم باحترام كدافعي ضرائب، ومن ثم فإنك تبذل قصارى جهدك كي تكون رسمياً قدر الإمكان.* <إذن فأنت تستخدم دائماً Mr أو Mrs؟> *نعم.* (نيوكاسل، مجموعة الدراسة، منسق رسومات حوائط، ٣٠ عاماً)

يوضح المثال التالي، من ناحيةأخرى، كيف يمكن استخدام المخاطبة بالاسم الأول في تحطيم الأفكار التقليدية عن المكانة الاجتماعية بين المعلمين والطلاب في المدرسة:

ذات يوم كنت أجري مقابلة في إحدى المدارس، وكانت تلك المدرسة تنتمي للطبقة المتوسطة-العليا.وأرادت الإدارة من الطلاب أن يخاطبوا معلميهم بالاسم الأول، حتى يكسروا الحاجز التقليدي بين المعلم والطالب. ونظراً لأن المعلمين كانوا يخاطبون الطلاب بالاسم الأول فقد أقدموا على أشياء مثل ارتداء الجينز عند الذهاب إلى المدرسة، وأشياء من هذا القبيل. غير أني أعتقد هذا الأمر كان ينطوي على مبدأ من المبادئ الأساسية للطبقة الوسطى في كونك على الصواب السياسي politically correct في مخاطبة المعلمين بهذه الطريقة ؛ فقد كنت أخاطَب أنا بـ"ماري" وليس "مس سميث". لذا فإنني لا أعرف إذا كان الأمر يتعلق بمسألة الطبقة الاجتماعية. (نيوكاسل، مجموعة الدراسة، معلمة بالتعليم الثانوي، ٣٤ عاماً).

(٣,٥,٥) الخلاصة Summary

توضح البيانات الفرنسية والألمانية أن مكانة الفرد في التسلسل الهرمي للعمل يمكن أن يكون لها تأثير في خيارات المخاطبة (انظر أيضاً الفقرة ٤,٤) فبين المشاركين الناطقين بالألمانية، يكون تبادل نفس الضمير هو القاعدة، سواء كان ذلك بين الزملاء ذوي المكانة المتماثلة أم بين العمال في مستويات مختلفة في التسلسل الوظيفي الهرمي للعمل. وتحدث المشاركون الفرنسيون أيضاً كثيراً عن التبادلية reciprocity، غير أن أكثر من ١٦٪ منهم يتحدثون عن مخاطبة لاتبادلية non-reciprocal address تأتي نتيجة الاختلاف في علاقات التسلسل الهرمي، مقارنة بـ٠,١٪ بين المتحدثين الألمان. وليس واضحاً إلى أي مدى يمكن أن يعبر الاستخدام التبادلي لصيغة V في الألمانية بين العمال ورؤسائهم عن علاقة أكثر مساواة مقارنة بأسلوب المخاطبة اللاتبادلي المستخدم في الفرنسية. ربما يكون ذلك ناتجاً عن ممارسات العمل التقليدية.

وفي السويدية، على النقيض من ذلك، هناك مقاومة واضحة لاستخدام أي أسلوب للمخاطبة يعكس المكانة الاجتماعية. فبالرغم من أوجه التشابه العامة في نظام الضمائر في السويدية والإنجليزية، إلا أن هناك اختلافاً واضحاً بين اللغتين في التعبير عن نظام المخاطبة الذي يقوم على التسلسل الهرمي. فاللغة الإنجليزية تحتوي على ألفاظ التبجيل التي تعبر عن فوارق المكانة الاجتماعية أو فوارق الطبقة، بينما يختلف الحال في اللغة السويدية مما يجعلها في معزل عن اللغات الأخرى، بينما تعمل اللغة الإنجليزية بنفس آلية اللغتين الفرنسية والألمانية.

لا يمكن للمتغيرين اللذين تناولناهما حتى الآن، وهما العمر والمكانة، أن يفسرا تفسيراً كاملاً جميع مسببات خيارات مخاطبة لدى المشاركين. وفي الفقرة التالية، بناء على ما سبق، نتحول إلى مسألة القواسم المشتركة الملحوظة perceived commonalities ودورها في تأسيس الأرضية المشتركة.

(٣,٦) القواسم المشتركة الملحوظة
Perceived Commonalities

يعد استخدام الضمير T في الفرنسية والألمانية، أو استخدام الاسم الأول في الإنجليزية والسويدية، دلالة على وجود روابط ما بين شخصين أو أكثر. وقد أطلق كالماير (Kallmeyer 2003) على هذا التقارب في درجة التفاوت الاجتماعي اسم gemeinsame Lebenswelt أي التجارب المشتركة والقرابات الملحوظة بين الأفراد. وقد ارتأت مجموعات الدراسة وكذلك الأفراد الذين شاركوا في المقابلات أن أشياء مثل الخلفية والاهتمامات والمواقف المشتركة والتي تدخل في إطار بعض الأنشطة مثل المشاركة في انتماء سياسي أو أيديولوجي، أو ممارسة الرياضة بشكل جماعي أوالانتماء إلى عضوية متآلفة داخل الكنيسة تعد عوامل ميسرة facilitating factors

في التقريب من هوة التفاوت الاجتماعي. في الألمانية، هناك بعض المواقف الخاصة، مثل الخروج معاً في إجازة إلى الجبال (ولكن ليس الجلوس جنباً إلى جنب في الطائرة)، التي قد ينجم عنها ما يكفي من القواسم المشتركة (المؤقتة والتبادلية) ما يجعل الناس تنفك من قواعد المخاطبة الطبيعية؛ وكما ورد في مانهايم وفيينا، فإنه على ارتفاع ٢٠٠٠ متر فوق سطح البحر يمكن لأي شخص أن يخاطب الآخر بـdu. ولا يبتعد مفهوم كالماير حول القواسم المشتركة الملحوظة عن مفهوم براون وجيلمان (Brown and Gilman 1960) حول التوافق الفكري likemindedness ومفهوم كلارك Clark حول "الأرضية المشتركة" 'common ground' (انظر الفقرة ٢,٣,٢). فيما يلي، سوف نتناول الفرنسية والألمانية معاً، إذ يظهر بهما أنماط متشابهة، وسوف نتناول الإنجليزية والسويدية بشكل منفصل بعد ذلك.

(٣,٦,١) الفرنسية والألمانية French and German

في الفرنسية والألمانية، يعد الانتماء إلى نفس الجماعة عاملاً دالاً فيما يتعلق بالمخاطبة بصيغة T بشكل تبادلي، سواء كان ذلك في اللقاءات الأولى أو بعد فترة وجيزة من المخاطبة بصيغة V. ويمكن اعتبار الانتماء إلى الجماعة أمراً شبه ثابت عبر الزمن، كما نراه متمثلاً في الانتماء إلى نفس النادي الرياضي:

[أستشعر هذا الأمر حينما أمارس الرياضة، [...] فنحن جميعاً في موقف واحد، نشترك في شيء ما، كاهتمامنا جميعاً بممارسة كرة الريشة badminton؛ الكل يتبادل tu. لا يستخدم أحد vous على الإطلاق، إنه أمر خارج السياق، إنه مستحيل. إننا في أعمار مختلفة، تتراوح بين سن البلوغ والستين. الكل يتخاطب بـtu.] (باريس، الاستبانة ٣، أكاديمية، ٣٩ عاماً).

تمضي المشاركة قائلة إن إحدى طالباتها قد اشتركت في النادي وعندما اكتشفت تلك الطالبة أن هذه المشاركة تعمل محاضرة بالجامعة، عادت الطالبة فوراً إلى مخاطبتها بصيغة الضمير V في الحال، على الرغم من تشجيع المشاركة لها على استخدام صيغة T. نجد في حالة هذه الطالبة أن بيئة المخاطبة بصيغة V المسيطرة على المجال الجامعي، (بين أعضاء هيئة التدريس والطلاب) قد سيطرت على المتغيرات الأخرى (انظر الفقرة ٤,٣,١).

هناك أيضاً أمثلة على أهمية الانتماء للأندية في البيانات الألمانية أيضاً. فيبين المثال التالي دهشة أحد المشاركين الألمان عندما خوطب بـSie على الرغم مما يشعر به من قواسم مشتركة مع الآخرين. وفي هذا المثال، نجد أن المتغير الرئيس للمتخاطب مع هذا المشارك هو العمر:

[لقد وجدت هذا الأمر مثيراً للسخرية، لقد حدث ذلك في فترة الشباب حينما كنت منتمياً إلى جماعة شبابية [...] تضم فئات عمرية متنوعة، وكنت عضواً في جماعة الشباب، كباقي الأشخاص الأحدث مني عمراً، ورغم ذلك فوجئت بهذا الشخص يخاطبني بـSie.] (مانهايم، الاستبانة ٢، مدير، ٣٣ عاماً).

يوضح مثال آخر من الفرنسية أن الانتماء إلى جماعة ما يمكن أن يأخذ شكل التجمع التلقائي spontaneous coming together حول هدف مشترك، كما هو الحال عند الانخراط في مظاهرة:

[كانت المخاطبة تتم تلقائياً بـtu [...] في اليوم الذي اشتركت فيه في المظاهرة. في بداية الأمر تجمع ١٢٠ ٠٠٠ شخص منا في شوارع باريس؛ كنت أتعامل مع أناس لم أكن أعرفهم من قبل وكنت أخاطبهم بـtu، ولم يكن هناك ما يمنع من مخاطبتي بـtu أيضاً. بما أنني فرد في مظاهرة كتلك، فإننا نعرف جميعاً أننا ماضون [...] في نفس الطريق،

ماضون في المسيرة وعلى نفس النهج السياسي؛ لذا فإن المخاطبة بـtu مشروعة تماماً.] (باريس، الاستبانة ٣، مؤرخ، ٦٩ عاماً).

وهناك مثال فرنسي ثالث وهو مثال يأخذ مفهوم الانتماء للجماعة إلى آفاق أبعد. ويبين لنا هذا المثال أن مقابلة عابرة مع شخص غريب يمكن أن تعطي إحساساً عفوياً ومحدوداً بالانتماء إلى الجماعة يعبر عنه من خلال التخاطب التلقائي التبادلي بـT. وتتحدث المشاركة عن مقابلة في أحد المحلات مع أحد الغرباء من نفس عمرها تقريباً:

[لو كنت في أحد المحلات، أتفحص أحد الأصناف المعروضة ووقف شخص بجواري يتفحص نفس الصنف وانتهى بنا الأمر إلى تبادل الانطباعات حول المعروض فإنه من الممكن أن نتخاطب بـtu في تلك اللحظة. [...] سوف يفهم هذا الأمر على أننا نتسامر، ونتجاذب أطراف الحديث حول ما رأيناه. وأعتقد أن هذا الأمر من قبيل الحوار المشترك الذي يتوقع حدوثه بين السائحين في الخارج وفي المحلات ووسائل النقل العام؛ إننا في نفس الموقف. وهنا ينشأ مجتمع وليد اللحظة a community of an instant، مجتمع يتحاور حول شيء ما.] (باريس، الاستبانة ٣، أكاديمية، ٣٩ عاماً).

هناك متغيرات أخرى تخلق إحساساً بالقواسم المشتركة الملحوظة، مثل متغير المظهر الخارجي والذي يتخذ أنماطاً متعددة، كطريقة قص الشعر، وأسلوب ارتداء الملبس. وتقدم مثل هذه المؤشرات الخارجية مفتاحاً لقراءة الشخص الآخر (راجع Joseph 2004: 36-7) حول كيفية تمكين اللغة للأفراد من "قراءة" بعضهم البعض)، وبالتالي انتقاء البديل المناسب من بين أشكال المخاطبة اللائقة. ويوضح المثالان التاليان هذه المسألة توضيحاً تاماً:

[إنه المظهر. إذا طلبت من شخص ما إرشادي إلى اتجاهات الطريق، وكانت له خصلات شعر كثيفة، مثل خصلاتي، سوف يمتعض هذا الشخص، حسب زعمي، إذا خاطبته بـvous. أما في حالة الشخص الذي يرتدي هنداماً أنيقاً فقد أخاطبه vous حتى وإن كان فارق السن بيننا ليس كبيراً.] (تولوز، مجموعة الدراسة، طالب، ٢١ عاماً).

[لا أخاطب شاباً من هواة موسيقى البنك punk من نفس السن باستخدم Sie، ولكن يمكن أن أخاطب مصرفي banker بهذه الصيغة.] (مانهايم، الاستبانة ١، لغوي، ٣٧ عاماً).

تشير هذه الأمثلة من الفرنسية والإنجليزية إلى أن عدم وجود قواسم مشتركة يمكن أن يكون من أسباب عدم المخاطبة بصيغة T بشكل تبادلي. وفي البيانات الفرنسية، يذكر حوالي ثلث المشاركين التعبير 'on n'a pas élevé les cochons ensemble' (وهو يعني حرفياً "نحن لم نربِّ الخنازير معاً") أو 'on n'a pas gardé les vaches ensemble' ("لم نَرْعَ الأبقار معاً")، بمعنى "لا تكن متحرراً في التعامل معي"، والذي يستخدم في المواقف التي يظن المتخاطب فيها، خطأً، وجود أرضية مشتركة.

في الألمانية، يتيح الضمير ihr "أنتم" للمتحدثين الألمان إمكانات إضافية للتعبير عن الاحتواء والإقصاء inclusion and exclusion. فقد ورد في الأخبار المتلفزة أثناء قمة الدول الثماني الصناعية الكبرى G8 summit في هايلجيندام Heiligendamm في يونيو ٢٠٠٧م حادثة مثيرة للجدل. فقد حدث أن قام أحد المتحدثين باسم جماعة ألمانية منشقة، وهي جماعة أتاك دويتشلاند ATTAC-Deutschland، والتي كانت قد نظمت إحدى المظاهرات السلمية المنظمة، بتوجيه رسالة على التلفاز إلى جماعة أوتونومين Autonomen، وهي جماعة سياسية أكثر تطرفاً. فاختطفت تلك الجماعة ما كان يعد مظاهرة سلمية وقاموا بتحويلها إلى احتجاج عنيف هتفوا فيه قائلين: Wir wollen euch nicht dabei (لا نريدكم أن تشاركونا في هذا) (سفين جيتهولت Sven Gienholt، ARD Tagesschau، ٣ يونيو

٢٠٠٧م). وهنا نجد أن المتحدث يخاطب أعضاء جماعة "أتاك" مستخدماً الضمير euch وهو صيغة المفعول للضمير ihr، وهو بهذا الاستخدام يعتبرهم مثل جماعته من المنشقين، ولكنه، في ذات الوقت، يرسل لهم رسالة إقصاء.

يلخص منسق مجموعة الدراسة الأولى في باريس أفكار المجموعة حول القواسم المشتركة وهذا يوجز أيضاً ما خلصنا إليه في البيانات الفرنسة والألمانية:

[في اللحظة التي تتعرف فيها على نفسك قليلاً من خلال الآخر، أو تتعرف فيها على إطار يجمعك بالآخر، وفي اللحظة التي تقول لنفسك فيها من المحتمل أني أتقاسم شيئاً مع الآخرين، وأننا ننتمي إلى نفس العالم، ربما ستجد حينئذ من السهل عليك أن تتخاطب بـtu] (باريس، مجموعة الدراسة ١، منسقة).

(٣,٦,٢) السويدية Swedish

مقارنة بما رأيناه في الفرنسية والألمانية، حيث تعد القواسم المشتركة الملحوظة هي المحفز لاستخدام صيغة T في المخاطبة، نجد أن العكس هو الصحيح في السويدية، نظراً لأن الضمير T هو الضمير الافتراضي للمخاطبة: فتؤدي قلة القواسم المشتركة الملحوظة مع تزايد درجة التفاوت الاجتماعي إلى المخاطبة بصيغة V. وتبين بياناتنا أن قرار مخاطبة شخص (غالباً أكبر سناً) بصيغة V إنما يكمن وراءه إحساس بأن المخاطَب شخص مختلف. وفي الاقتباس التالي، نجد أن مظهر المتخاطب وسلوكه هما المتغيران الأساسيان المحفزان لاختيار ضميرمعين للمخاطبة:

[إن الأمر نسبي وفردي. وإذا ما نظرنا إلى كبار السن، من البالغين ٧٠ أو ٨٠ عاماً، فقد نجد بينهم أشخاصاً مفعمين بروح الشباب كأي شاب آخر، وساعتها تدرك أن هذا الشخص ليس مثل جدك أو جدتك حتى وإن كان يضارعهم عمراً، وعليك

أن تتوخى الحرص في المخاطبة لئلا تجرح هذا الشخص.] (فاسا، الاستبانة ٧، مستشار خبير، ٦٣ عاماً).

إن أبرز الملامح التي تحدد اختيار ضمير معين للمخاطبة هو المظهر العام للشخص، والذي يتمثل في أسلوب ارتدائه للملبس وغيره من الكماليات الأخرى:

[إذا كان عمر الشخص الذي تخاطبه يناهز عمر والدي، مثلاً، ٥٥ إلى ٧٠ عاماً، ربما تنظر في شأن مخاطبته به [أي المخاطبة بالضمير V]. إن الأمر يعتمد على مظهر ذلك الشخص. وقد تشعر أن امرأة ذات معطف من فرو القاقم وتلبس المجوهرات تود لو خاطبتها بالضمير V، يختلف ذلك عن مخاطبة شخص يرتدي حقيبة الخيش من نوع الفيالرافين Fjällräven rucksack. إن المتعلقات الخارجية للمظهر تشي عن الطريقة التي يود الشخص أن يخاطب بها.] (جوتنبرج، الاستبانة ٢، طالبة جامعية، ٢٤ عاماً).

[إن المسألة تعتمد على الشخصية بصورة أكبر، فإذا كنت ذا أنف يشبه حلوى الطوفي، إذن فأنت ترغب أن تُخاطَب بـni، وأنت تدرك إن كنت تود أن تبدو أعلى مكانة من الآخرين أم تريد أن تكون على شاكلتهم. ويمكن أن تخاطب سيدة عجوز في محل NK (أحد المحلات ذات البضائع باهظة الثمن) بـni.] (جوتنبرج، الاستبانة ٩، طالب، ٢٠ عاماً).

إنه لمن المثير أن نلاحظ أن العديد من أفراد الدراسة لديهم تصورات حول النساء اللائي يرتدين معاطف الفرو (انظر الاقتباس السابق)، أو الرجال الذين يرتدون القبعات، وهو أمر غير معتاد في هذه الأيام: ("كان يرتدي قبعة ومعطفاً، تماماً كما ينبغي لرجل مسن") (جوتنبرج، الاستبانة ٣، عاملة نظافة، ٢٥ عاماً). قال لنا نادل شاب إنه يخاطب العملاء باستخدام صيغة T، ما عدا affärsmän i tredelad kostym med väst (رجال الأعمال الذين يلبسون بزة من ثلاث قطع وصدرية) والطاعنين في السن

المتكئين على عصا. إن ذكر تلك الأوصاف لثياب يندر تداولها، سواء لغلو ثمنها أو لمجافاتها للذوق الحديث، قد يكون أيضاً دلالة على ندرة استخدام صيغة المخاطبة بـV في اللغة السويدية في الوقت الحاضر.

إذن فالسويدية، بما تمتلك من معدل فائق في الحالات التي تستخدم فيها صيغة T كصيغة افتراضية وبتعويلها كثيراً على العمر النسبي كمتغير للتفاوت الاجتماعي، تعد جد مختلفة عن الألمانية والفرنسية فيما يخص دور القواسم المشتركة الملحوظة كمتغير في تحديد التفاوت الاجتماعي. غير أن قول العديد من أفراد الدراسة السويديين (حوالي ٢٠٪) بأن العمر في حد ذاته ليس هو المحدد لخيار المخاطبة، كما رأينا في الاقتباسات السابقة، يوضح لنا أن عامل العمر في السويدية، كما هو الحال في الألمانية والفرنسية، يتفاعل، في الأغلب، مع المتغيرات الأخرى مثل المظهر العام، وتصور توقع المخاطَب لأسلوب أكثر رسمية أو أكثر احتراماً. وفي السويدية يخلق الشعور باختلاف المخاطب عن المتكلم، أي الشعور بنقلة القواسم المشتركة الملحوظة بينهما، من التفاوت الاجتماعي ما يرجح كفة المخاطبة بصيغة V.

في لغة مثل السويدية، والتي تعد فيها صيغة T هي الخيار الطبيعي في كافة السياقات تقريباً، لا يمكن أن تستخدم صيغة T للإشارة إلى القواسم المشتركة التي تربط الأفراد ببعض الروابط، مثل الصداقة، والانتماء السياسي، وزمالة العمل. وهنا تكون المخاطبة بالاسم الأول هي المشير إلى تقارب التفاوت الاجتماعي وإلى الألفة. وهناك دلائل، كما رأينا سابقاً، تشير إلى أن استخدام صيغة T للتعبيرعن العلاقات الهرمية بين بعض الناس يعد أمراً طبيعياً جداً. ونجد في ملاحظات المشاركين من الجامعة السويدية حالة فتاة التحقت لتوها في أحد أقسام الجامعة السويدية واستشعرت غرابة شديدة حينما رأت الآخرين يحيونها ليس فقط بلفظ hej "مرحباً"، ولكن أيضاً باسمها الأول، وهو ما يوضح مدى ارتباط الاسم الأول بالألفة والتودد. وعلاوة على ذلك

أصبح من الشائع، في الفترة الأخيرة، أن يخاطبك الغرباء، من أمثال البائعين أو مندوبي التسوق عبر الهاتف، بالاسم الأول. ويبدي المشاركون الذين يعلقون على مخاطبتهم بالاسم الأول بهذه الطريقة مقاومة شديدة لهذا الاتجاه:

[عندما يخاطبك أحد الغرباء باسمك الأول، فإن هذا أمر يفوق التصور.] (جوتنبرج، مجموعة الدراسة ١، كاتبة، ٦٧ عاماً).

[إنه أمر غير سار على الإطلاق أن تخاطب بالاسم الأول. إن الاسم الأول يعد من الخصوصيات.] (جوتنبرج، مجموعة الدراسة ١، أمينة صندوق، ٢٠ عاماً).

(٣,٦,٣) الإنجليزية English

لقد انصب نقاشنا حتى الآن بصورة أساسية على اختيار ضمير المخاطبة كوسيلة للتعبير عن الأرضية المشتركة، غير أن استخدام الاسم الأول، كما رأينا من قبل، في اللغة السويدية، يلعب دوراً كبيراً في اللغات التي يكون تمايز الضمير فيها ضعيفاً أو منعدماً. ففي مجموعة الدراسة الخاصة بالإنجليزية الإيرلندية، جرى نقاش حول التحول من استخدام صيغة لفظ التبجيل + الاسم الأخير إلى استخدام الاسم الأول فقط. وكان هذا التحول مشابهاً للتحول الذي حدث في الفرنسية والألمانية من استخدام صيغة V إلى صيغة T:

حسناً إذا خاطبك شخص بالاسم الأول فإن هذا يعني أنه يريد أن يتعرف عليك، وإذا ما خاطبت شخصاً بلفظ Mr "السيد..."، وطلب منك أن تناديه، مثلاً، "بول" Paul فحسب، فإن هذا يعني أنه يريد الاقتراب منك. (ترالي، مجموعة الدراسة، محاضر جامعي، ٤٥ عاماً).

إن الفرضية التي تكمن وراء المخاطبة بالاسم الأول هي أن المتفاعلين interactants لديهم بعض القواسم المشتركة، غير أن المخاطبة بالاسم الأول يمكن أن تستغل أيضاً في بعض العلاقات التي تقوم على المعاملات التجارية transactional relationships، لا سيما تلك العلاقات التي تتولد عبر الهاتف. وفي المثال التالي، تذكر إحدى المشاركات أن محدثها قد تجاوز ما تعتبره الفضاء الشخصي لها personal space. فهي لا تريد أن تقيم معه أي نوع من العلاقات الوثيقة:

<هل تحدّث أي منكم إلى شخص من شركات الهاتف الجوال التي يعملون بها؟ [...] هناك اتجاه بينهم إلى استخدام عبارات مثل "أهلاً بالسيد صامويلز، هل يمكنني أن أناديك بيتر؟" كيف يكون الشعور إذا تحدثوا معك بالاسم المسيحي Christian name (الاسم الأول) دون استئذانك أولاً؟> *إنني لا أثق بهم إذا فعلوا ذلك، لأنهم إذا خاطبوني باسمي الأول وهم لا يعرفونني فذلك إفراط في الألفة over-familiar.*
(لندن، مجموعة الدراسة، ٣٣ عاماً)

وحتى في المواقف التي تظل فيها العديد من المتغيرات ثابتة، مثل مواقف المعاملات بين الموظفين والزبائن في بيئة العمل، فقد تبدأ كافة العلاقات باستخدام لفظ التبجيل + الاسم الأخير، إلا أن البعض يتحول بعد ذلك إلى المخاطبة بالاسم الأول، بينما يتحول الآخرون إلى المخاطبة بألفاظ التحبب. ويمكن تفسير مثل هذا التدرج في إطار تطور العلاقات الشخصية بين المتخاطبين والتي تكسر تقاليد العمل، كما نرى من خلال اقتباس من سمسار رهن عقاري في لندن في الفقرة (٣,٧).

وكما هو الحال في الفرنسية والألمانية، تعبر المخاطبة بصيغة T (والاسم الأول) عن الانتماء إلى الجماعة groupness، أما في الإنجليزية البريطانية، لا سيما بين الرجال،

فيمكن أن يعبر عن الانتماء إلى الجماعة من خلال التخاطب ببعض الألفاظ الاسمية مثل كلمة mate "رفيق":

إنني من مشجعي فريق ويست هام West Ham وإذا ذهبت إلى مباراة لكرة القدم وقابلت شخصاً هناك وكان يتحدث بلكنة إيست إند East End، سوف أجد نفسي في الحال أتكلم بنفس اللكنة، لأنني كنت أتحدث بها حينما كنت صغيراً، وفي الحال أجدني أخاطبه بكلمة mate "يا رفيقي". (لندن، مجموعة الدراسة، صحفي، ٣٠ عاماً).

نرى من المثال التالي الذي ورد في المقابلة في نيوكاسل، وأجري في أحد محلات بيع المنتجات الموسيقية، أن كلمة mate توظف بطريقة مشابهة لما يوظف به الضمير الفرنسي tu، وذلك كونها تولد شعوراً بالانتماء الفوري الآني بين أفراد ذوي توجه فكري واحد:

إذا ما صادفت شخصاً ينظر إلى نفس القسم من نوع الموسيقى التي أحبها، فربما يستغرقني الوقت طويلاً قبل أن أعرف اسمه. ربما يأخذ ذلك وقتاً طويلاً، وربما نتحدث لساعات قبل أن يعرف كلانا اسم صاحبه.[...] ربما يطول بنا الوقت، ونأخذ في التخاطب بـmate، ونلبث زمناً قبل أن يقدم أحدنا نفسه للآخر بصورة رسمية. (مجموعة الدراسة بنيوكاسل، معلم لغة إنجليزية، ٢٥ عاماً).

كما يوضح فورمنتيللي (Formentelli 2007: 11) فإن "استخدام لفظ mate في المخاطبة يمكن أن يكون تعبيراً عن الهوية identity marker، أي يعبر عن افتراض وجود أرضية مشتركة، ومشاعر وحاجات مشتركة، ويمكن أن يكون تأكيداً على الانتماء لنفس المجموعة أو الفئة".

تشير البيانات، الواردة من لندن ونيوكاسل، إلى وظيفة إضافية للفظ mate، وهي تلك الوظيفة التي يصفها المشاركون بأنها وظيفة التعبير عن "المساواة" leveller، أو

"الامتزاج" diffuser، أو "الإحساس بالأمان" disarmer. وفي المثال التالي من لندن، يوضح أحد المشاركين في إجابته لسؤال حول استخدام صيغ مخاطبة مألوفة مع الغرباء، أنه يمكن استخدام mate لخلق مسافة distance عندما يلتقي رجلان لا يعرف كل منهما الآخر:

إنني قد أستخدم mate في ذاك الموقف لأنها "تعطي الإحساس بالأمان" disarming thing، أي تبين أنك لا تمثل أي تهديد تجاه الآخر، كي توضح أنك لا تريد أن تكون... ولكنها أيضاً تحافظ على المسافة بينك وبين الآخر، لأنك لا تريد أن تذهب في علاقتك بالآخر إلى أبعد من الموقف. فإذا قلت Yeah, cheers mate "نعم، إلى اللقاء يا رفيق"، فإن ذلك يعد إنهاءً سلساً للموقف بكل سهولة". (لندن، مجموعة الدراسة، صحفي، ٣٠ عاماً).

(٣,٧) الفرد كمتغير
The Individual as Variable

يكمن عنصرالانتماء إلى الجماعة وراء مفهوم "القواسم المشتركة الملحوظة" بغض النظر عن كون هذا الانتماء مؤقتاً أم دائماً. وما تبينه لنا البيانات التي بين أيدينا هو أن أساس اختيار صيغة المخاطبة اللائقة يمكن أن يختلف باختلاف الفرد. ويتضح دور الفرد في خيار المخاطبة من خلال التعليق التالي من إحدى المشاركات الباريسيات:

[أعتقد أنه يعترضنا الكثير والكثير من الصعوبات في توضيح المواقف التي يستخدم [...] فيها المتحدث الفرانكوفوني francophone speaker الضميرين tu و vous. وأعتقد أن هناك قواعد أساسية، غير أن الأمر يختلف اختلافاً بيّناً بحسب الفرد. فالمشاعر تلعب دوراً حيال هذا، والتاريخ الشخصي للفرد أيضاً له دوره المهم.] (باريس، الاستبانة ١، طالبة، ٣٠ عاماً).

قال بعض المشاركين في البيانات الفرنسية أنهم وجدوا من الصعوبة استخدام الضمير T: [إنني لا أستخدم tu بسهولة.] (باريس، الاستبانة ١٢، وكيل عقاري، ٣٣ عاماً)، بينما يصنف الآخرون أنفسهم على أنهم من مستخدمي صيغة T person T، لا سيما خارج بيئة العمل: [إنني ممن يخاطبون الجميع بـtu.] (باريس، الاستبانة ٥، موظف مصرفي، ٢٧ عاماً).

في البيانات الإنجليزية أيضاً، ذكر المشاركون أهمية دور الفرد في تحديد خيارات المخاطبة ونوع العلاقة التي تنشأ:

<أقصد، أنه في عملك كوكيل رهن عقاري، متى تعلم أنه ينبغي التوقف عن مخاطبة شخص ما بصيغة مثل "مستر سميث"؟> *يحدث ذلك عندما أكون قد أسست علاقة مع هذا العميل.* <وكيف تعرف ذلك...؟> *لا أستطيع أن أفسر ذلك. إنك تشعر بذلك فحسب. فهناك الكثير من الأشخاص في الوقت الحاضر أقمت معهم علاقات امتدت لسنوات عديدة، ولكنني سوف أظل أتحدث معهم بصيغة رسمية: أستخدم معهم Mr "السيد..." و Mrs "السيدة..." . إنني أتحدث مع أغلب من أعرفهم بالاسم الأول ومع البعض الآخر بـmate "رفيق" ، فأخاطبهم قائلاً Right mate, how are you? "حسناً يا رفيق، كيف حالك؟" . وهكذا نرى أن الأمر يجري بحسب الموقف. وعليك أن تزن الأمور، وربما يستلزم ذلك مهارة خاصة.* (لندن، مجموعة الدراسة، وكيل رهن عقاري، ٣٤ عاماً).

هناك إجماع في مجموعات الدراسة على أن بعض الأفراد قد يستخدمون صيغة T في المخاطبة أكثر من غيرهم. فيفرق المشاركون في الدراسة بين ما يسمى الفرد من نوع Sie "أنت للاحترام" والفرد من نوع du "أنت، العفوية" du and Sie types في المقابلات. وصنف بعض الأشخاص أنفسهم بأنهم من مستخدمي du وصنف آخرون أنفسهم من

مستخدمي Sie كضمير افتراضي إذا لم يكن هناك سبب قهري لكسر هذه القاعدة (مثل التسلسل الوظيفي الهرمي في بيئة العمل). ويصف بعض المشاركين من الناطقين بالألمانية، أيضاً، أنهم يختارون صيغة المخاطبة وفق مبادئ عقلانية:

[نقوم بتصنف بعض الأفراد بطريقة معينة، وفق وظيفتهم، ومدى احترامهم، وموقعهم من الهرم الاجتماعي، من كافة النواحي.] (مانهايم، مجموعة الدراسة ١، ضابط شرطة، حوالي ٤٠ عاماً).

إن هذا الأمر يتناقض مع ما يقوله الآخرون، مثل ذلك الطالب في مجموعة مانهايم والذي يصر أن اختياره لصيغة المخاطبة إنما يعد اختياراً عاطفياً:

[إن لدي قاعدة، ألا وهي أنني إما أن أحب الشخص أو لا أحبه، وأعتقد أن قلبي يعطيني الحق أن أخاطب شخصاً أقابله للمرة الأولى بـSie أو du، حسب ما يتراءى لمشاعري.] (مانهايم، مجموعة الدراسة ١، طالبة، ٢٤ عاماً).

لقد كان تداخل المجالات العاطفية والمهنية مثاراً لكثير من تعليقات المشاركين الفرنسيين والذين يعبر استخدامهم لضمائر المخاطبة في العمل عن الروابط الشخصية مع المخاطَب وليس عن اعتبارات بيئة العمل:

[أخاطب بـtu الأشخاص الذين أشعر أنني أرتبط معهم بوشائج. وأخاطب بـvous من لا أستشعر معهم بتلك الوشائج، بغض النظر عن أعمارهم.] (تولوز، مجموعة الدراسة ١، محاسبة، ٤١ عاماً).

توضح الأمثلة التي سبق ذكرها كيف يمكن للفرد أن يحدد أنماط المخاطبة أثناء التعامل، سواء بطرح قواعده الخاصة أو فرضها فرضاً، سواءً كانت تلك القواعد محددة تحديداً

عقلياً أم عاطفياً. ويمكن ان نصنف مثل هؤلاء الأفراد على أنهم "مانحون" givers لنمط المخاطبة. ويستفيض اثنان من المشاركين في مجموعة تولوز في النقاش حول من يحق له المبادرة في اختيار ضمير المخاطبة:

[(١) هناك من يبادر بالاختيار وهناك من يقع عليه قبول المبادرة.
(٢) وهناك أيضاً من يفعل الأمرين.
(١) نعم. عطاء وقبول.
(٢) نعم، إما أن تفرض ضمير المخاطبة أو يفرض عليك.]
(تولوز، مجموعة الدراسة ١، (١) استشاري تعليم، ٢٩ عاماً؛ (٢) مساعد بمكتبة، ٢٧ عاماً).

يمكن تصنيف إحدى المشاركات، وهي طالبة في أوائل العشرينات من عمرها تدرس الفلسفة، كمُستقبِل. فقد ذكرت الفتاة أنه لا يعنيها أن تخاطب بـvous أو tu؛ ما يعنيها هو الشخص الذي يعاملها وسلوكه المتوقع. ويبدو لها أن اختيار ضمير المخاطبة لا يرتبط بإظهار الاحترام أو التعبير عن التفاوت الاجتماعي، ولكن يرتبط بالتفاعل مع خيار ضمير المخاطبة الذي يبادر به محدثها:

[إن لدي انطباعاً بأن مخاطبتي للآخرين بـvous أو tu هو شيء لا يأتي من داخلي، يأتي من الشخص الآخر وليس من عندي. ولا يعنيني أن يخاطبني الناس بـvous أو tu في العمل. فلا يمثل هذا الأمر عندي أية قيمة خاصة، غير أن الشخص الآخر قد يتوقع مني أن أخاطبه بـvous، ولهذا أنزل على رغبته، لأن هذا هو ما يتوقعه. وأعتبر أن هذا الأمر مسألة من قبيل التقاليد أكثر من كونها خياراً شخصياً. ربما تكون هذه وجهة نظري حتى الآن لأني لم أكن مضطرة لإمعان الفكر في مثل هذا الأمر.] (تولوز، مجموعة الدراسة ١، طالبة، ٢٢ عاماً).

ونوه أحد المشاركين من الناطقين بالسويدية إلى فكرة كون الشخص "مستقبلاً" لصيغة المخاطبة من الطرف الآخر، وهو ما يؤكد على أهمية خيار المخاطبة وارتباطه بقراءة ما يفضله المتخاطب الآخر. بمعنى آخر، يمكن القول إن المشارك يضع نفسه "كمستقبل" في الأساس ينتظر تحرك الشخص الآخر:

[نعم، إنك غالباً ما تفكر في هذا الأمر حينما تتقابل مع شخص لا تعرفه؛ هل هو ممن يخاطبون بـdu 'du-person' أم بـni 'ni-person'؟ في الحالات غير القاطعة، بصفة خاصة، يصعب دائماً أن تعرف كيف تخاطب هذا الشخص وحينئذ ينبغي عليك أن تتحسس الأمر قليلاً ثم تلاحظ استجابة الشخص الآخر.] (فاسا، الاستبانة ٤، معلم تعليم الكبار ومدير مشروع، ٤٦ عاماً).

يمكن أن نتصور الأفراد كمانحين أو مستقبلين للمخاطبة بناءً على مواقفهم تجاه مخاطبيهم فيما يتعلق بالمشاركة في الحوار اللفظي، سواء أكان الحوار سلبياً أم إيجابياً. فالمستقبلون يحاولون الاقتراب من أنماط مخاطبيهم الكلامية التي يبادرون بها، بينما يفرض المانحون أنماطهم الخاصة في المخاطبة وبالتالي فإنهم قد ينحرفون عن خيارات المخاطبة للمتحدثين معهم. وكما أن هناك أشخاصاً يصنفون على أنهم من مستخدمي T أو V، فهناك أيضاً شبكات لتوظيف T أو V في داخل الجماعة. وحتماً سوف ينتمي الأفراد إما إلى شبكات مستخدمي T أو شبكات مستخدمي V، وقد يسيء أفراد شبكة مستخدمي V تفسير استخدام T من جانب المنتمين إلى شبكة مستخدمي T على أنها تعبير عن علاقة وثيقة جداً. إن مثل هذه القراءة التي تنطوي على تحميل الأمور أكثر مما تحتمل overreading يمكن أن تؤدي إلى نوع من فقدان الاحترام face loss.

وخلاصة الأمر، فإن إحساس الفرد بانتمائه إلى هوية ما يمكن أن يؤثر في كيفية وماهية اختياره لأسلوب المخاطبة، وهي ديناميكية أوجزها ببراعة أحد المشاركين في مجموعة الدراسة بلندن:

إن المسألة تتعلق بمقدار ما نملك من مؤهلات تتفق مع ما نخاطب به. ولأن لديك الحق في أن تخبرني بما تحب أن أخاطبك به، فإن لي الحق أيضاً أن أخاطبك كيفما أحب. ولأنك جزء من حياتي وجزء من هويتي، فإن هويتك أيضاً هي جزء من حياتي. (لندن، مجموعة الدراسة، موظف دعم إسكان، ٢٨ عاماً).

(٣,٨) ملاحظات ختامية
Concluding Remarks

تعد المخاطبة وسيلة مهمة من وسائل كيفية إدارة العلاقات الشخصية بين الناس. لقد مكنت اللغات الأربع مستخدميها، من خلال صيغ المخاطبة بالضمير و/أو الاسم، ومن التعبير عن التفاوت الاجتماعي، والأرضية المشتركة والحدود التي تقف عندها كل جماعة من الجماعات. ويمكن أن يحدد الاختيار العقلاني أو رد الفعل العاطفي التلقائي القرار الخاص باختيار صيغ المخاطبة التي يتم استعمالها.

من الواضح أن المتغيرات التي تؤثر على درجة التفاوت الاجتماعي، مثل العمر والمكانة الاجتماعية، لها دورها، ويظهر ذلك حينما يحاول مشاركونا أن يحددوا على وجه الدقة الأسباب التي من أجلها يفضلون صيغة للمخاطبة على أخرى في موقف ما. غير أنه وفق ما رأينا من الاقتباسات الواردة في هذا الفصل، فإن هذه الفئات الاجتماعية ليست هويات ثابتة، بل تعد محلاً للتفاوض من حيث أهميتها النسبية في الموقف الخاص محل النقاش. وغالباً ما يلاحظ المشاركون الخصائص الظاهرة التي ترشدهم حول كيفية مخاطبة شخص يقابلونه للمرة الأولى، فالمسألة، كما يراها معظم

المشاركين، تعد مسألة قراءة هوية المخاطب، والانتظار لمبادرة الشخص الآخر بالمخاطبة والبحث عن مؤشرات كيفية الرد.

ذكرنا في الفرنسية والألمانية، فيما يتعلق بالمقابلات مع الغرباء، أن التماثل sameness يعد هو الفئة البارزة التي تعزز استخدام صيغة T إذا فهمنا ما ينطوي عليه هذا التماثل. ووفق البيانات المتوافرة لدينا، يظهر التماثل، والذي يعبر عن الأرضية المشتركة والإحساس بالهوية المشتركة، في أنماط عديدة من الانتماء للجماعة بدءاً من الانتماء للنادي إلى الانتماء لمجتمع آني مؤقت يمكن أن ينشأ بين الأفراد حول غرض مشترك، ويعبر عن نفسه أيضاً عند التعرف على الذات في وجود الآخر. ومع أن اللغة الإنجليزية لا تفرق بين صيغتي T و V، إلا أن ثنائية الاسم الأخير في مقابل صيغة لفظ التبجيل + الاسم الأخير تؤدي مهام تتشابه مع مهام المخاطبة بصيغ T و V في الفرنسية والألمانية. لقد رأينا أن الصيغ الدالة على تقلص هوة التفاوت الاجتماعي مثل صيغتي mate "رفيق" و love "حبيب"، والصيغ الدالة على اتساع التفاوت الاجتماعي مثل صيغتي Sir "السيد" و Madam "السيدة"، يمكن أن تضارع صيغتي T وV على التوالي. غير أن صيغة mate يمكن أن تستخدم كتعبير عن التفاوت الاجتماعي يشبه ما تعبر عنه صيغة T 'T-like distancer' وذلك من ناحية دورها في ترويض متخاطب عنيف، إذ إن هذه الصيغة في جوهرها تعد تعبيراً عن الانتماء إلى الجماعة an in-group marker. وسوف نرى في الفصل الرابع أن صيغتي Sir "السيد" و Madam "السيدة" يمكن أن يستخدما كتعبير عن التفاوت الاجتماعي يشبه صيغة V 'V-like distancer'. وعلى النقيض من ذلك نجد أنه، على الرغم من أن التماثل في السويدية يمكن أن يؤدي أيضاً إلى التحول إلى استخدام الاسم الأول، إلا أن "الاختلاف" difference يعد هو السمة البارزة وهو المحرك نحو استخدام صيغة V. وهذا هو المتوقع بالنظر إلى قلة استخدام صيغة V. ولا يعبر عن الاختلاف من خلال المظهر المادي للآخر، كالملبس وغيره من

سمات الهندام فحسب، ولكن أيضاً من خلال الملامح الظاهرة لتقدم السن، حيث تعبر السويدية عن التأدب السلبي negative politeness مع كبار السن من خلال الاستخدام الخاص لصيغة V.

تتناول الفرنسية والألمانية أساليب المخاطبة بطرق متشابهة، في معظم الأحوال. فكلتا اللغتين تتوافر لهما خيارات ضمائر المخاطبة في حالة المفرد. وفي كلتا اللغتين يرتبط اختيار الأسماء، الاسم الأول أو الاسم الأخير، والألقاب وغيرها من ألفاظ التبجيل ارتباطاً وثيقاً بضمير أو آخر من ضمائر المخاطبة. فيرتبط الاسم الأول في الفرنسية والألمانية، بصفة عامة، بصيغة T وترتبط صيغة لفظ التبجيل + الاسم الأخير بالصيغة V. غير أن الصيغ الوسيطة، مثل صيغة T، وصيغة لفظ التبجيل + الاسم الأخير وصيغة V + الاسم الأول تعد من الصيغ المستعملة أيضاً. فتستخدم صيغة V والاسم الأول، مثلاً، بصورة غير تبادلية في بين الأفراد ذوي الأعمار والمكانات المختلفة في الألمانية، وبين أفراد الأسرة وفي أماكن العمل المختلفة في الفرنسية (انظر إلى الفقرة ٤,١,١ و ٤,٤,١). وتستخدم صيغة T و لفظ التبجيل + الاسم الأخير أيضاً في الألمانية في بعض المواقف المرتبطة ببيئة العمل (انظر الفقرة ٤,٥,٢).

يعد الضمير V، إلى حد كبير، هو الضمير الافتراضي الذي يستخدم مع الغرباء في كل من الفرنسية والألمانية، غير أن هناك اختلافات هامة في المخاطبة بين اللغتين، من بينها استخدام الألمانية للأشكال الوسيطة، التي سبق مناقشتها، على نطاق أوسع، واستخدامها أيضاً لصيغة T أكثر من الفرنسية. ويتحكم المتغيران اللذان تناولناهما في هذا الفصل، وهما العمر والمكانة، إلى حد ما، في تحديد خيارات المتحدثين لصيغ المخاطبة في الفرنسية، على الرغم من الدور الذي يلعبه الذوق الخاص للفرد. أما في الألمانية، على النقيض، فإن الذوق الخاص للفرد يلعب دوراً قوياً في اختيار صيغ المخاطبة (سواء تلك التي تستخدم الضمير أو الاسم)، حيث لا يعول بعض الأفراد

كثيراً على الدلالة الاجتماعية للتفرقة بين صيغتي T و V، لذا نجد أن الاختلاف في صيغ المخاطبة في الألمانية شائعٌ جداً، وهو ما يولد نوعاً من عدم القدرة على توقع صيغة معينة في المخاطبة. ونجد أن ضمير الجمع ihr يستخدم أيضاً كصيغة وسيطة للتعبير عن الجمع أو عن التجمع في مجموعات مختلطة يتبادل فيها المتخاطبون صيغتي T و V، بل وأيضاً بين مجموعات من مستخدمي صيغة V.

في كافة اللغات محل الدراسة، أجاب كثير من المشاركين بعبارة "على حسب الأحوال" it depends. عندما طلبنا منهم اختيار العمر الذي ينبغي أن يخاطَب الشخص عنده بطريقة خاصة، فقد حرص من أجاب بعبارة "على حسب الأحوال"، ومن تجنب الإجابة على السؤال وطلب التوضيح بعناصر من الموقف، على وضع إجاباتهم في إطار سياق معين. فهؤلاء المشاركون يضعون أنفسهم في موضع مقارنة مع المخاطِب وحاجاته. بمعنى آخر، لدى هؤلاء المشاركين إدراك للذات مقارنة بالآخرين. وفي ذات الوقت، فإن بعض المشاركين يحددون عمراً معيناً – يعتبرون عنده أن "الأشياء تصير هكذا" – دون الإشارة إلى أي عوامل سياقية. وقد يرجع الاختلاف هنا إلى أن التحول من استخدام صيغة V إلى استخدام صيغة T (أو التحول من استخدام لفظ التبجيل + الاسم الأخير إلى استخدام الاسم الأول) يرتبط بمرحلة فاصلة هامة a rite of passage في حياة الإنسان ترتبط ببلوغ سن محددة أو بإنجاز مهني معين أو غيره.

دائماً ما تكون المتغيرات الاجتماعية مندمجة في مجالات معينة وترتبط وسيلة التواصل the medium of communication أيضاً، إلى حد كبير، باختيار أشكال معينة في المخاطبة. وسوف نناقش هذه الموضوعات في الفصل التالي.